أمـــين الخــولى

من هدى القرآن
في رمضان

أمين الخولى

الأعمال الكاملة

فى رمضان

أمين الخولي

من هدى القرآن

في رمضان

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

عقـول . . وقلوب

« قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي .. أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

هذه أحاديث أذيعت ، في رمضان ، عن رمضان ، خلال ثمانية عشر عاماً من ١٣٦٠ هـ إلى ١٣٧٨ — ١٩٤١ ـ ١٩٥٨م .

وكان الرسم فى تلك الأحاديث أن يتقبلها أولئك الذين لا يعرفون الطريق إلى المعابد . يحسبون أنهم شبوا عن التلقين الإيحائى ، وجاوروا دور الغيبية المقلدة ، وفاتوا طور السذاجة التى تنومها الترنيمات البدائية ، فى عباراتها الزخرفية ، الخاوية ، المحنطة .

فـكانت تلك الأحاديث موضوعات برأسها ، يدرس كل موضوع منها من نواحيه المختلفة ، فى سعة وعمق ، وحرية وصدق ، لم تنج أحيانا ، من برم أصحاب الإذاعة بأشياء فيها ، حين يقيسونها بمألوفهم من أحاديث عن شئون دينية . .

وكانت تلك الأحاديث كما رأى القــارىء فيما نشر من غير هذا الموضوع — وكما سيرى فيه — منهجا فى فهم القرآن ، نفسياً واجتماعياً

ثم أدبياً فنياً ، يعتمد على الحس اللغوى لألفاظه وعباراته .. ويعمد إلى دقائق بيانه البليغ فى تراكيبه واستعمالاته ، وعن هذا الطريق يعرف مراميه ومقاصده .. ويحكم هذا المقياس فيما قال الناس من قبل ، عن تلك المرامى والمقاصد ، ويعترف بما أقره .. وينكر ما أباه .

من أجل ذلك المنهج المحكم كانت تهتف تلك الأحاديث بين الحين والحين منادية : أيتها العقول المفكرة .. أيتها القلوب المؤمنة .. تحتكم إلى العقول حين تلفت إلى ما يتقبله العقل الكبير الحر .. وتحكم القلوب حين تناجى بما يطمئن إليه الوجدان الدقيق الحساس ..

وأرجو أن يجد هؤلاء وأولئك ، فيما يقرءون اليوم من تلك الأحاديث على هدوء وهوادة ، مثل الذى رجوت أن يجدوه حين سماعها مشافهة ، بإلقاء موجه ..

إن هذا القرآن لأهل لأن يتذوق فيمتع ، قدر ما هو أهل لأن يتدبر فيقنع .. ولعل هذه الأحاديث — وغيرها من هدى القرآن — قد عرضت طرفا مرضيا من فنه .. وحكمته ؛ وإنه بعد ذلك كله لملىء بما يتذوق .. ويفهم

ولعل مثل هذه الأحاديث مفاتح لذلك الخير ..

أمين الخولى

قالوا في صوم الإسلام ... وأقول

« الصوم لفت للبشرية الى فطرتها
لكيلا تطغى »

« وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . .

أريد وصل هذه العبادة بأهداف الإسلام الاجتماعية البعيدة ، وتدبيره الأكبر للحياة ، ولو كان ذلك الوصل ، من طريق غير الذى ألف الناس تكراره وترديده.. ولا بدع فى ذلك ما دام ملتمسى ليس إلا من هدى القرآن الكريم ، ووحى نظمه البليغ . .

تحدث المتحدثون عن حكمة هذا الصوم ، فدار ما قالوه فى ذلك على أوجه .

منها : أنه تخلق بخلق من أخلاق الله تعالى ، وهو الصمدية ، على أن معنى الصمد ، الذى لا يطعم ، فالصمد من الرجال الذى لا يعطش ولا يجوع فى الحرب[1] .

---

(١) لسان العرب . مادة ص . م . د

ثم في الصوم كذلك التشبه ـ قدر الإمكان ـ بالملائكة المقربين بالكف عن الشهوات والخلو منها ، كما أن الملائكة منزهون عن الشهوات جميعا . .

ومن حكمته أيضاً أنه قهر للنفس ، وكسر للشهوة ؛ لأن النفس إذا ما شبعت طلبت الشهوة ، وإذا ما جاعت امتنعت عنها .

كما ذكروا من الحكمة أنه وسيلة للتقوى ، لأن النفس إذا ما انقادت للامتناع عن الحلال طمعاً في رضاء الله وخوفا من عقابه ، فأولى لها أن تنقاد للامتناع عن المحرمات .

ثم من الحكمة كما قالوا أيضاً ، اقتضاؤه الرحمة والعطف على المساكين ، فمن ذاق ألم الجوع بعض الوقت تذكر به من يذوقه في أكثر أوقاته .

ومن الحكمة كذلك : أن الصوم وسيلة إلى شكر النعمة ، إذ هو كف عن أشياء تعد من أجل النعم وأعلاها ، فالامتناع عنها زمنا ما يعرف بقدرها لأن النعم مجهولة ، فمتى فقدت عرفت ، فتحمل معرفة قيمتها على قضاء حق شكرها[1] .

ومن تلك النواحي وأشباهها من الحكم ، وصلوا الصوم بأغراض الإسلام العليا في تدبير الحياة كما بدا لهم ذلك . وعلى ما فهموه منه .

أيتها العقول المفكرة . . إن المتأمل في هذه الحكم . ليلمح فيها

(١) أبحاث حكمة التشريع في كتب الفقه بأكثر عباراتها ، مع تغيير طفيف جدا .

اتجاهين متضادين . . فبينا يستشف فيها نفحات فلسفية ، ويستمع لنغمات زاهدة أجنبية ، إذا به يشهد نزعة مادية استمتاعية .

فأما الأولى فنى التخلق بأخلاق الله والتشبه بالملائكة ، مما يسمع من المتفلسفين فى بيان معنى الخيروالفضيلة ، منذ زمن قديم ، وإلى جانب ذلك رياضة النفس وقهرها بالجوع ، وكسرها بالحرمان ، مما ألف فى الرياضات الهندية وأشباهها منذ بعيد أيضا ، وتلك كلها اتجاهات تجريدية روحية .

ويجاورها فيما سمعتم من الحكم ، أن ما يكف عنه الصائم من المطاعم والمشارب والمشتهيات إنما هو من أجل النعم وأعلاها يحتاج الإنسان إلى أن يعرف قدرها ، ويؤدى شكرها . وهكذا يكون الناس فى النظر الى تلك الحكم والاقتناع بها صنوفا مختلفة وميولا متغايرة . . على أنه مهما تصح تلك الحكم وتقنع من تقنعه ، ومهما تشتمل تلك الحكم على نظرات متخالفه أو متغايرة فليس هناك ما يمنع من النظر فى جديد من الحكمة وراء ما قيل . . فهل لمستمعى الكرام إلى رحلة فكرية رمضانية نلتمس فيها شيئاً من الحكمة يهدى إليه القرآن ! . .

أيها العقول المفكرة . . ما أحوج هذه الرحلة إلى قبس من ضياء البصيرة لا يضيره تكاثف ظلمات هذه الأيام ؟ وعلى ضوء هذا القبس المنير، نطوف فى أرجاء الكنز السماوى من هذا الكتاب الكريم، لندرك طرفا من حكمته فى هذه العبادة . . وإنما قبسنا هذا الهادى هو نظرة القرآن

للانسان و بشريته في حياته على هذه الارض .

ولقد تحدثت إليكم غير مرة ، عن ذلك الإصرار العنيد الذي يظهره القرآن ، في الاستمساك ببشرية الرسل المكرمين ، وأنهم بشر مثل سائر البشر ، ومن الحق الذي يجب الجهر به في قوة ، أن القرآن حينما يستمسك، ببشرية الرسل ، هذا الاستمساك ، إنما يقف وقوفاً حاسما في تاريخ الحياة والحضارة ، من نواح مختلفة . . فبهذا الأصل يقف القرآن موقفاً فاصلا في تاريخ الأديان و يبدأ بهذه الفكرة عصراً متميزاً في تاريخ التدين الإنساني .

ويقف القرآن بفكرته في بشرية الرسل ، موقفاً فاصلا في تاريخ الحياة العقلية للانسان .

ويقف القرآن بفكرتة في بشرية الرسل ، موقفاً فاصلا في تاريخ الحرية الاجتماعية والسياسية ، ويبدأ بهذه الفكرة عصراً جديداً في تاريخ الجهاد الإنساني من أجل هذه الحرية .

كما يقف القرآن بفكرته في بشرية الرسل ، موقفاً حاسما في تاريخ الحرية الفكرية بخاصة ، ويبدأ بهذه الفكرة عصراً خاصاً في تاريخ جهاد الإنسان من أجل تحرير العقل والتفكير ، ولئن كان بيان هذا ومثله مما لا يحمله الأثير ، ولا تنهض به الثقافة الخفيفة فإن لبيانه الحق موضعه الفسيح في أبحاث تلك المناحي الخطيرة ، من تاريخ الحياة العقلية ، والاجتماعيه ، والسياسيه والحرية الفكرية ؛ وحسبنا هنا أن نقول :

إن هذا القبس الوضاء ، من رأى القرآن فى البشرية ، وإلزام الإنسان حدودها على الأرض حتى لا يجاوزها إلا بقدر وعمل .. هذا القبس يفيض نوراً نفاذاً ، بين يدى من يريد فهم القرآن وإدراك تدبيره للدنيا ، ورياضته للخلائق ، فى هذا العالم .

أيتها العقول المفكرة . . على هدى هذا النور ، أريد لأفهم القرآن ، مقدرا أن ما عرف الناس ويعرفون ، من نواميس الحياة النفسية لهؤلاء البشر، هو المرشد الأول لهذا الفهم ، وهو العدة التى لا يستطاع الوصول بدونها إلى حقائق من معانيه يطمأن إليها . . .

وكذلك نحاول النظر فى حكمة عبادة الصوم ، بإرشاد المعارف النفسية ، وما تقرره عن اتجاه النفس ، وانتباهها إلى هذه الرغبات التى يأخذ الصائم نفسه بالكف عنها ، والحرمان منها بياض نهاره .

والمتفهمون للنفس يقولون : إن انتباه الإنسان لما حوله ، واتجاهه إليه ، يكون انتباهاً مباشراً ، واضحاً قوياً ، إذا ما كانت الأشياء المنتبه إليها مما له فائدة ذاتية فى حياته ، وأثر فى إرضاء نزعاته الغريزية ، ودفع لحاجاته الفطرية مهما تكن تلك الفائدة ، وذلك الأثر ، يسيرا أو حقيرا ، ومن هنا نرى أن الأكل ، وهو من أهم مرضيات غريزته ، وبه تندفع حاجته الماسة ، يكون الانتباه إليه انتباهاً مباشرا واضحاً . . فاذا ما راعينا إلى جانب هذا أن النفس تزداد انتباهاً إلى ما تمنع منه ، وما يحال بينها

و بينه من رغباتها ؛ وفى هذا يقول القائلون ، كل ممنوع متبوع، وأحب شىء إلى الإنسان مامنع • بل لقدسمعنا ، قول المتحدثين فى حكمة التشريع: إنه بالامتناع زماناً عن هذه الأشياء التى يمتنع عنها الصائم ، يعرف قدرها لأنها متى فقدت عرفت •

وعلى هذا فالأثر النفسى ، الذى لاينكرهو: أن فى الصوم انتباهاً إلى حاجة المرء للطعام والشراب وما إلى ذلك . . . ظاهرة تجدها فى حديث الصائمين ،إذا ما تبسطوا فى القول بغير كلفة ، وفى نسيانهم حين تسبق أيديهم إلى المطعوم والمشروب، فى غير تذكر للنية المبيتة ، وفى احتفالهم بموائدهم فى رمضان يحلبون لها مختلف الألوان فى طرفى النهار •• واذن ففيم قصد المشرع إلى هذا الصوم الذى ينبه إلى الطعام والشراب ، وحاجة الإنسان " ذلك ؟؟

أيتها القلوب المؤمنة : أريد لألتمس الجواب عن هذا من صنيع آن نفسه،حينما يتحدث عن أكل الطعام ؛ لنعرف من وحدة سياقه الثابتة ن مدار استعماله المكرر ، لأى شىء جعل أكل الطعام علامة ؟ وفى أى ضع توخى أن يعبر به ؟ لعلنا بذلك نعرف ماذا وراء إثارة انتباه الإنسان الطعام ، وحاجته إليه من غرض ؟ .

وسنرى القرآن حين يذكر إنكار المنكرين من الناس لبشرية الرسل، أكل الطعام مظهر تلك البشرية ، ويفعل ذلك أكثر من مرة . فيقول

فى عبارة المنكرين : « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » . فهم فى معرض الاستهانة بالرسول (ص) والتصغير لشأنه ، والسخرية من تسميته رسولا ، يقولون ما لهذا الرسول ! كأنهم قالوا : ما لهذا الزاعم أنه رسول ، إن صح أنه رسول الله فما باله ، حاله مثل حالنا ، يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ؟! فجعلوا أكل الطعام كالسعى على المعاش مظهرا للحاجة ، وأثراً للبشرية .

ونراه أيضاً حينما حاجهم بعد ذلك يصر على البشرية فيعبر عنها بهذه اللوازم، ويقول : «وما أَرْسَلْنا قَبْلكَ منَ المرْسَلينَ،إلاَّ أنهم ليَأكُلونَ الطعَامَ ويَمْشُونَ فى الأسْوَاقِ وجَعَلْنا بَعْضَكم لبَعْض فتْنة ، أتَصْبرون ؟ وكانَ رَبُّكَ بَصيرا » أى وما أرسلنا قبلك من المرسلين ، إلا آكلين الطعام ، وماشين فى الأسواق .

ويرى المتصل بالكتاب الكريم ، وحدة هذا السياق القرآنى الثابتة حين تسمعه فى مقام آخر ، يسجل بشرية هؤلاء الرسل ، فيذكر أكل الطعام أيضا ، ويقول: « ومَا جعلْناهم جَسَداً ، لا يَأكُلون الطعامَ ، ومَا كَانُوا خَالِدينَ » . وهكذا يظل يجمل أكل الطعام مظهر البشرية لأنه ماجعل الأنبياء عليهم السلام ، قبل محمد غير ذوى جسد ، غير آكلين الطعام ويجلى لك هذه الوحدة المطردة فى استعماله ، أن نسمعه يعد أكل

الطعام مادة هذه البشرية ودليلها فى مقام آخر ، ونزاع آخر ، وهو النزاع على ألوهية مدعاة، قد أنكرها فأيد الإنكار بأن المدعى لهم ذلك يأكلون الطعام ، فقال : « مَا الْمَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ، أُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » .. فصرح ببعدهما عما نسب إليهما بقوله : « كانا يأكلان الطعام » لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام لم يكن إلا جسما[1] .

وهكذا يعد القرآن دائما أكل الطعام آية هذه البشرية المحتاجة على حين يعد الإطعام مظهر الألوهية ، وصورة الانعام ، يكرر ذلك مرارا فيقول على لسان إبراهيم (ص) فى وصف إلهه ، « وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين » ويقول فى إنعامه على قريش ، « الَّذِى أَطْعَمَهم مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » . ويميز فرق ما بين الألوهية مقابلة بالبشرية فيقول : « وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمَ » ، ويبكت العباد قائلا : « مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونْ » .

أيتها القلوب المؤمنة . إذا كانت هذه دلالة الاستعمال القرآنى لأكل الطعام على البشرية وحاجتها ، فهل يكون تشريع الصوم إثارة للانتباه

---

(١) الزمخشرى : بعض عباراته فى الكشاف ١ : ٤٢٩ .

إلى ما يحتاج إليه هؤلاء البشر، تذكيرا لهم بهذه البشرية المحتاجة ، ولهذا إثارة فى نفس صائم رمضان ، كما أن له فى نفس الوقت أثره فى اخزاء المفطر فى رمضان لغير عذر، إذ يعلن عن صفة الضعف فى بشريته ، و يسجل سمة الحاجة فى كيانه !

هل القرآن كما ترفع فى مثاليته المتسامية ففتح للبشرية آفاق السماء لتتلقى الوحى ، فى أشخاص الأنبياء ، وحين هيأ للبشرية من منازل الكمال أسمى ما تستطيعه حين ترتقى، هوالذى عمد فى واقعيته العملية إلى أخذ هذه البشرية بالصوم لتنتبه انتباها قويا لما تحتاجه ، فتشعر شعورا واضحا بحاجتها الأصيلة ، فلا تتعدى طورها ، ولا تتجاوز بالغرور قدرها ! ! .

أحسب أن ذلك، من حكمة تشريع الصوم ، معنى غير بعيد ، يؤيده واقع نفسى ، ويدل عليه هدى قرآنى ، ويؤنس به سياق متحد ، واستعمال مطرد .

أيها المؤمنون . إن الطغيان فى كل حال من أحواله تجاوز للمقدار ، واستعلاء مستكبر ، يعتز بضرب من القوة ، يدعيه الطاغية . و يطرد فى حال الطغاة ما يطرد من دعاوى روحية يدعونها ، يموهون بها على الجماهير و يغتصبون بها الإجلال والتقدير ، مخفين ظواهر بشريتهم ، محجبين ضعفها بحاجتها ، وقد حارب القرآن هذه الدعاوى فى عقول الناس وأعمالهم ،

واليوم أشعر بالرغبة القوية فى وصل عبادة الصوم ، بهذا الهدف القرآنى الكريم فى مقاومة الطغيان . وقد سمعتم أن هذا الصوم تشريع يثير الانتباه إلى حاجة البشرية ، فيسجل ظاهرة الاحتياج على أولئك الآدميين ، فهو تشريع يقتطع من العام شهرا ، يدفع فيه الطغاة المتكبرين ، والدعاة المخدوعين، إلى الشعور القوى،والانتباه الحقيقى لبشريتهم وحاجتها . ويكشف عن ذلك فيهم للناس كشفا ، يردهم جميعا إلى حدودهم . ويلزمهم طورهم»

فالصوم رياضة تنبيهية تكبت غوائل الطغيان إذ تشعر بحقيقة الآدمية ، وتصد الطاغية عن الاستكبار ، إذا ما أحس بضراعة الاحتياج .. وكل فرد مهما يكن مركزه معرض فى بيئته للون من الطغيان يجاوز فيه قدره ، نوعا من المجاوزة ، فإذا ما رده الصوم بتنبيهه المكرر إلى حاجة الإنسان إلى أكل الطعام عاد بالصوم إنسانا سويا ، قد عرف قدر نفسه . . فهى رياضة عامة متكررة تستأصل سببا بعيدا من أسباب الطغيان ، هو تجاوز حد البشرية الطاعمة الشاربة .

إنها يقظة نبه إليها حلول رمضان ، ورغبة فى وصل الصوم بكريم الأهداف ، التى يدفع القرآن إليها الدنيا ، ووسيلة من وسائل القرآن فى مقاومة الطغيان ، بأعم المعانى ، وفى أوسع الدوائر . فانتبهوا .. أيها الصائمون . انتبهوا بصومكم ، إلى أنفسكم تعتدلوا ، ولا تطغوا . . طال انتباهكم إلى هدى القرآن . وسلام الله عليكم ورحمته .

في رمضان

« معنى حى لنزول القرآن فى رمضان »

سلام الله عليكم ورحمته .. « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

أحسبكم قد حدثتم عن الصوم غير قليل ، فأرجو ألا يكون قد أملكم من ذلك شيء ، وآمل أن يكون لكم فى الصوم نفسه عزمة ، وإرادة لا ينالها فى سبيل الخير وهن .

من هدى القرآن نظرته إلى هذه الإنسانية على الأرض ، وفكرته فى تقديرها ، ومن دأب القرآن ، أنه يعتبر أكل الطعام آية البشرية ، وعلامة الحاجة فكأنما الصوم تذكير متصل ببادية الكيان ، وضراعة الاحتياج رجاء أن يرد ذلك هؤلاء الآدميين إلى حدودهم لا يعدون أطوارهم . . كأنما الصوم ، لون من التدبير ، يأخذ الناس بواقعية عملية ، تقابل نواحى أخرى تهيئهم لما ينهضون إليه من مثالية متسامية . . وتلك الفكرة فى حكمة هاتيك العبادة رأى بين الآراء الأخرى المرددة ، وأحبب إلينا ألا يقنع التفكير الإنسانى من هذه الحكم بغاية يقف عندها ، أو يكتفى بها .

أيها المؤمنون . إن نظرة القرآن لهذه البشرية منذ أصر على إثباتها للرسل ، نظرة لها أثر دينى ، وفلسفى ، واجتماعى ، بعيد .. حتى إنه ليتميز

بهذا فى تاريخ التدين، والتفلسف، والتحرر الإنسانى، تميزاً فريداً، ولكننى حين ألتزم الإجمال فى هذه النواحى، وأتركها لمكانها من الدرس والبيان لا أرضى بهذا الإجمال فى ناحية أخرى، هى ما لهذه الفكرة القرآنية عن البشرية، من الصلة بالأسس الكبرى، والأصول الإسلامية البعيدة، ولهذا أتحدث إليكم عما لهذه الفكرة من ارتباط وثيق بأصول الحياة الدينية فى نظر القرآن وكيف تقرر؟ وكيف ينظر إليها وتفهم!

* * *

أيتها العقول المفكرة.. إذا أصر القرآن — فى تكرار — على أن الرسل عليهم السلام، إنما هم بشر، مثل البشر وإذا كان يهدى إلى أن الصوم رد لهذا الناس، إلى آدميتهم، فإن لهذا وشبهه، دلالة بعيدة المدى على أغراض ومرامى سامية، قصد إليها القرآن، بهذا التقرير وذاك الهدى.

وإن المفكر المتمعن، ليشعر أن هذا الصنيع من القرآن، إنما هو رفع للناس، إلى فهم هذه الحياة، فى أفق من الوضوح المحدد، وعلى أساس من الضبط الجلى الدقيق... نعم فإن المتأمل المتبصر ليدرك أنه بهذا يضع الحياة الدينية على أساس من قابلية الفهم، وتناول العقل. لا تسوده غيابات الإبهام الروحى، ولا تزعزعه أوهام الغيبيات التى تلف الحقيقة بكثيف من الضباب، لا تنفذ فيه نظرات الذهن مهما تطل التحديق.. وتغمرها بفروض

واحتمالات مسرفة فى اللامادية ، معتمدة على قوى مجهولة ، ومؤثرات غير مستبينة .

ايتها العقول المتحررة . . ليس منك من لا يذكر أنه باسم العجائب والخارقات ، قد انتهكت حرمة النواميس وثبات النظم ، واطراد السنين .

وباسم الروحانية المتطرفة ، قد أيدت مزاعم ، واستلبت حقوق ، واغتصبت مزايا كواذب ، وروجت حماقات . .

ومن الإرهاب بالأرواح الشريرة والشياطين العابثة ، قد روعت نفوس ، وهتكت حجب ، وطوردت عقول .

وباسم السحر وتسخير القوى الخفية ، قد زعزعت قلوب ، وأقلقت خواطر ، وهدمت أسر وجماعات .

ومن كل هذه العوامل ، التى راجت فى البيئات الدينية والأجواء الاعتقادية ، بهوى وغرض ، لاستغلال واحتيال ، قد حوربت حرية الفكر وسلبت سلطة العقل . . فلا مرية فى أن أشعر بالصلة الوثيقة بين تقدير القرآن للبشرية ، وبين خطته فى مطاردة هاتيك الأوهام جميعاً ، واستعلائه على تلك المفاسد بأسرها !!

نعم .. فإنى لأشعر ، بأن رده الرسل إلى البشرية ، وأخذه المكلفين

برياضة من الصوم ، تستهلك جزءاً من اثنى عشر جزءاً من حياة أولئك المكلفين، يدركون فيها آدميتهم ، كل هذا متصل بالأساس ، الذى يرى القرآن أن يقام عليه فهم هذه الحياة ، وإدراك معنى التدين .

نعم.. أدرك بوضوح أن ما للقرآن من هذه النظرة إلى الإنسانية ، يتصل بما قصد إليه من العدول عن المعجزات التى تلهى الأبصار ، وتحير الحواس ، وتدهش المشاعر ، إلى اختصاص العقل بالخطاب ، وجعل حجته بهذا القرآن ،فى قوة الكلام ، وصحة الدليل،وسلطان الحجة[1] من كتاب أحكمت آياته لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نعم ، أدرك فى وضوح أن تقدير القرآن للآدمية يتصل بما قصد إليه من رد الناس، عن الهيام بغيوب الروحية ، والبحث عنها حين قال : وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِنْ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ..

وأدرك بوضوح ، أن هذه الفكرة القرآنية تتصل بما قصد إليه من هدم سيطرة الأرواح الشريرة والشياطين وما إلى ذلك ، بإسدال ستار كثيف ، يحجب الناس عن دعاوى رؤيتها ، إذ يقول عن الشيطان ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ.

---

(١) الأستاذ الامام — رسالة التوحيد ص ١٤٣ ط السابعة بتصرف .

وإذ ينفى أن يكون له سلطان على عباده بقوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » .

وفى الحق أن أدرك بوضوح أن هذه الفكرة عن البشرية تتصل بما يشير اليه القرآن من عد السحر تخييلا فى مثل قوله « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » . ومن الصواب أن أدرك فى جلاء وقرب أن تقدير القرآن لإنسانية الناس يتصل أقوى اتصال باخضاعه الأشياء لفهم العقل وتدبيره ، حينما تراه ، لا يسوق آياته ؛ الا للعاقلين ، أو للعالمين ، أو المتفكرين ، أو لمن يفقهون .

كما تراه يكثر من الأمر بالنظر والتدبر والاعتبار والتعقل ، ويعد طاقة البشر معيار الأخذ والمنع . وأساس المسئولية والتبعة « لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » . . وبهذا الهدى المتعقل تأثر الباحثون منذ القدم ، فاحتكموا إلى العقل ، وقرروا إخضاع نص القرآن نفسه للعقل . إذ قالوا : « لو تعارضت آية ودليل عقلى ، فإن الدليل العقلى يكون حاكما[1] ، وما كانوا بعد ليمتنعوا عن مثل هذا فى إخضاع السنة ، فقالوا : كل خبر يناقض صريح العقل ، حيث لا تأويل فهو باطل[2] ، وما هذا العقل إلا العقل البشرى ، والقوة الآدمية الإنسانية ، فهل على بن

(١) الآمدى ـ الإحكام فى أصول الأحكام ـ ٣ : ٢٢٦.
(٢) ملا على القارىء وابن حجر ـ شرح النخبة ص ١٢٦ ، ١٢٧

حرج فى أن أفهم من هدى هذا القرآن ، أنه إنما يجعل حياة الناس على هذه الأرض بشرية تحدها قوامها، وتضبطها ملكاتهم دون توهم ، أو تخيل، أو تزيد ، أو ادعاء !

وهل على من حرج فى أن ألمس الصلة بين تدبير القرآن للشعور بهذه البشرية ، فى عبادة الصوم وبين مرماه البعيد فى جعل هذه البشرية أصلا لما أقيم عليه التفكير الإسلامى فى فهم الحياة ، والتدبير الإسلامى لإصلاح الحياة ، فهماً وإصلاحاً ، مضبوطين محددين جليين ، لأنهما آدميان عقليان أولا وأخيراً؟ .. لا حرج إن شاء الله ، فهكذا تتصل عبادة الصوم بأصل جوهرى هو المدار والأساس لفهم الأهداف القرآنية السامية .

أيها الشاعرون بروعة القرآن . . فى ضوء هذا البيان ننظر فى حديث القرآن عن رمضان إذ يقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » . والمفسرون منذ أولهم إلى اليوم يدورون — فيما رأيت — حول أقوال بعينها مواجهين مشكلة : هى أن القرآن إنما نزل مفرقاً فى عشرين سنة ، أو أكثر عند المناسبات ، لا فى شهر رمضان فقط ، فتارة يقولون فى تفسير هذه الآية : إن القرآن نزل جملة فى رمضان أو فى النصف منه ، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، فجعل فى بيت العزة ، ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض مفرقاً فى

السنين .. وعند ما يتبسطون فى هذه المرويات قد يمضون إلى القول بأن الكتب السماوية نزلت كلها فى رمضان ، ويحددون تواريخ أيامها فيه ، فصحف إبراهيم فى أول ليلة ؛ والتوراة لست مضين من رمضان؛ والإنجيل لثلاث عشرة ؛ والقرآن لأربع وعشرين منه ، وتلك وأشباهها روايات لا يوقف عندها ..فليت للزمان هذه الذاكرة الواعية فى أقرب الأحداث!

وقد هاجم هذه الروايات من هاجمها [1] ومهما يكن من شأنها فليس لها كبير غناء فى معنى الآية ، وما كان القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان بنزوله من سماء إلى سماء ! ! حتى يفسر بذلك نزوله فى رمضان ! !

وحينا يقولون فى معنى الآية : نزل القرآن فى سائر الشهور ، ولكن جبريل كان يعارض الرسول صلى الله عليه وسلم به ويقابله معه . . ولكن هل المقابلة هى النزول ، أوهى عمل بعد النزول؟..وهل يسهل تفسير النزول بالمقابلة أو المعارضة أو المدارسة ؟ ما أظن .

وطوراً يرون أن شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، معناه أنه أنزل بشأنه قرآن ، أى جاءت عنه فى القرآن آية الصيام كما يقال : نزل فى شخص، أو فى حادث قرآن؛ أى وردت بشأن ذلك آية من القرآن . . ولكن هذا ليس مما يمتاز به رمضان ؛ كما أن آية الصيام لا يظهر وصفها

---

(١) الأستاذ الامام فى تفسير المنار ٢ : ١٧٢

خاصة بما ورد بعد ، من هدى وبينات من الهدى والفرقان ، وذلك على ما يستبين هو وصف الفرقان كله .

وقد يفسرون نزول القرآن فى رمضان بأنه ابتدأ فيه نزوله ، على أن لفظ القرآن يطلق على الكتاب كله ، كما يطلق على بعضه الذى كان به ابتداء النزول ؛ ويقبل هذا الرأى متقدمون من المفسرين ومتأخرون[1] ويشبهه بعض المتقدمين[2] بالتاريخ بمبادىء الدول والملل ، لشرفها وانضباطها .

ولكن هل يثبت أن بدء الوحى ، ونزول أول آية كان فى رمضان ؟ وهل هذا البدء معين محدد ، فيشبه بمبادىء الدول والملل فى انضباطها ؟ وأين كان هذا التاريخ بذلك البدء ؛ ثم قبل هذا وذاك لم عبر بالنزول عن بدء النزول ، وبأى شىء صرفوه إلى ذلك ؟ وهم يرون أن فائدة وصف الشهر «بإنزال القرآن فيه» هى، التنبيه على علة تخصيصه بالصوم فيه[3] .. ولكن هذا التخصيص قد كان بعبارة أبهمها تفسيرهم لها ، واختلافهم الشديد حولها .

---

(١) الأستاذ الامام — تفسير ٢ : ١٧١

(٢) النيسابورى على هامش الطبرى ط بولاق ٢ : ١٨٣

(٣) النيسابورى ٢ : ١٨٢ وقريب منه ما فى المنار ٢ : ١٧١

وهكذا لا تجد من هذه الأقوال التى دار حولها المفسرون جميعاً فى فهم آية رمضان هذه ، رأياً ترتاح إليه .

أيها الشاعرون بروعة القرآن : لقد قصروا النزول على المعنى المادى من الانتقال،والهبوط ، والانحدار ،ونحوه . وليس هذا كل معنى الكلمة ، وليس هذا كل مااستعمل فيه القرآن هذه الكلمة .. لقد استعملها القرآن فى حسيات ليس فيها انتقال،ولا هبوط فهو يقول «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » وليس هابطاً من السماء ، وهو يقول «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً»وليس يعنى انحدار هذا من الأعلى إلى الأرض . . بل يلاحظ أنه حين يقصد هذا الانتقال المادى يذكر مبدأه ويصرح به فيقول : أنزل من السماء ماء ؛ أنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً .. أنزل علينا مائدة من السماء . ولم يذكر هذا المبدأ فى آية رمضان ونزول القرآن فيه ! !

ومن المفروغ منه أن الألفاظ لا تقصر على معناها الحسى أبداً بل تنتقل عنه انتقالات كثيرة إلى إطلاقات معنوية . . وهم أنفسهم قالوا[1] الإنزال تقريب الشيء ، والهداية إليه ، و إنزال الله نعمه ونقمه على الخلق

---

(١) الراغب الأصفهانى — مفردات القرآن — مادة « نزل » مع إضافة يسيرة من غيرها .

إعطاؤهم إياها ، ففيم إذن هذا الوقوف عند معنى النزول المادى من سماء إلى سماء ، أو الوصول إلى الأرض والإبلاغ إلى شخص !

القرآن نعمة وهداية ، تعطى للناس ، وتقرب إليهم ، وتيسر لهم فى ظروف ومناسبات مع رياضة خاصة ، أو عبادة خاصة ، فإنزال القرآن فى رمضان يمكن أن يكون بتقريبه إلى الناس ، وأنسهم به فى شهر رمضان عند ما يرتاضون بالصوم ، ويدركون من الصوم ، ما رأينا من غاية ، تتسق مع الفكرة الجامعة فى فهم الدين ، وفهم الحياة .. ففى كل رمضان إذ الناس يشعرون من الصوم بما يشعرون به ، يقرب القرآن إلى نفوسهم ، ويستبينون منه الهدى والبينات من الهدى ، فى تفسير الحياة وتدبير الحياة والقرآن فى ذلك فرقان واضح ، يتميز به فى تاريخ الإنسانية عصر عن أعصر قبله وهذا معنى الفرق والتميز فى كلمة الفرقان الذى فيه منه بينات

على هذا الوجه يفهم أن نزول القرآن فى رمضان هو تقريبه والإيناس به فيزيد الاستشفاف لهداه ، وبيناته .

وإذا كان القرآن قد وصف نفسه كثيراً بأنه هدى ، فإنه هنا قد وصف نفسه بأنه هدى وبينات من الهدى والفرقان ، وهو وصف لم يرد فى القرآن كله إلا هذه المرة ، فالصائمون المرتاضون يدركون من القرآن هدى وأكثر ،

يدركون بينات من الهدى والفرقان . هذا إن تلوه ليتبينوه، ويستخرجوا بيناته وفرقانه ، ومن هنا يتدارس القرآن في رمضان ، ويكون ذلك شعاراً وتقليداً إسلامياً لأنه نعمة وهداية ، تقرب من نفوسهم في شهر رمضان وهم صيام — هديتم إلى ما في القرآن من هدى وبينات من الهدى والفرقان .

والسلام عليكم ورحمته ؟

١٠ / ١٠ / ١٩٤١

عن فلسفة الجوع

١ — الجوع حكمة الصوم . . عند الفقهاء

٢ — الجوع محور الرياضة . . عند الصوفية

سلام الله عليكم ورحمته . . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »

تشهدون الموسم الرياضى السنوى ، فى رمضان ؛ وهو موسم رياضى ، أحسبه لونا من التدريب الإصلاحى ، يجند له المسلمون جميعــا . . فاذا ما كانت الأمم اليقظة اليوم ، تلزم أبناءها الصالحين ، فى كل عام ، ضربا من التدريب الجندى مدة معينة . يتركون فيها أعمالهم المعتادة ، من فنية وعلمية ، وعملية . . ويأوون طول هذه المدة إلى مواطن خاصة ، يؤخذون فيها بصنوف من النظم الجادة الحازمة ، والأعمال الناشطة ، فما أشبه هذا الموسم الصومى ، بأن يكون ، لونا من التدريب الرياضى ، يؤخذ فيه المكلفون ، من أمة القرآن جميعا ، رجالا ونساء ، بنظام حياة ، رزينة ، فيها صلابة ، وفيها عزم . .

وإذا ما كانت الأمم اليقظة اليوم ، انما تدرب أبناءها ، إعداداً ليوم ، تحتاج فيه ، إلى جلادة فيهم وصلابة ، يلقون بها أزمات ، تمتحن فيها حيويتهم ، ويفدون فيها جماعتهم . . فلعل هذا التدريب النفسى ،

أن يعدكم لشيء ، مما يحتاج إليه شرقكم ، فى إثبات وجوده ، و إحياء مجده وما أشد حاجته ، إلى ذلك كله .

و إذا ما كانت مواسم التـــدريب فى الأمم انتقالا ، يغير خطط الحياة والعمل ، فموسمكم الرياضى السنوى ، خليق بأن يدخل غير قليل من التغيير ، على تدبير حياتكم ، ونظام أعمالــكم .

لقد تحدثت عن نظام هذا التدريب الإسلامى طوائف ، من أصحاب الثقافة الاسلامية فوصف برنامجه ، أصحاب الفقه ، فيما درسوه ، من العبادات . . كما تحدث عن أسراره ومراميه ، أصحاب التصوف ، فيما وصفوا ، من رياضات ومجاهدات .

و إذا ما كان الفقهاء والصوفية ، قد اختلفوا منذ عصر مبكر ، فى أشياء كثيرة ، فلعلهم فى هذا الحديث عن الصوم ، قد اتفقوا فى فهم حقيقته الأولى و بيان مرماه الهام ، فى الشريعة ، وما يؤخذ به المـكلفون فيه . ونريد هنا لنستمع إلى قول الفئتين ، فى هذا ، وما اتفقوا عليه بشأنه ، على ألا نستمع لهم ، فى استسلام غافل ، وقبول متساهل ، بل لننظر فيه ، بعين ناقدة ، فاحصة ؛ وعلى أساس ، هو : أن هذا القرآن إنما هو الأصل ، الأول والبيان الأكمل ، فما أيده القرآن ، من مرامى الفقهاء والصوفية فهو المقبول ؛ وما باعده القرآن وجافاه من قولهم ، فهو

المردود ، مهما تتوجه أسماء بارزة ، وتروج له هيئات ذات شهرة سائرة .

ولهذا نلتمس فهم النظرة القرآنية ، لهذه العيادة ونتتبع حديثه فيها ، وفيما يتصل بها ، من جوع وأكل ، تتبعا نستبين منه وجهة نظره ، ولباب رأيه ، ونعرف به الاعتبارات والأغراض التى يرمى إليها ، من هذا كله .. ثم نعرض قول الفقهاء والصوفية ، على ما تصل إليه من ذلك ؛ فما قرب من تقدير القرآن ، وصادف اعتباره ، فهو الرأى ، ومالا فلا . . وبهذا يتضح لنا مدى تمثلهم للحكمة القرآنية ، واستشفافهم للهدى السنى .

وإنا لنرمى بهذا إلى غرضين :

أقربهما، أن نهتدى من حكمة التدريب الصومى ، إلى شيء أدق وأنفذ، مما قيل فيه ، فنغير النغمة المكررة ، فى بيان تلك الحكمة، وذلك المرمى .

وأبعد هذين الغرضين ، أننا فى الوقت نفسه ، نتدرب ، وندرب أصحاب التفسير على طريقة فى التدبر والفهم ، تعتمد على التتبع الشامل لقول القرآن فى الموضوع الواحد ، واستقصاء غرضه فى المرمى الواحد ، على اختلاف تناوله له ، فى الأزمنة المتباعدة ، والمناسبات المتعددة ؛ إذ أن هذا التتبع والاستقصاء ، هو الذى يقرب من ذوق القرآن الفنى ، وينقلنا إلى جوه الأدبى ، حتى ننتهى إلى دقائقه ، ولا نقف عند شرح اللفظة اللغوية ، وذكر المعنى الشائع

للجملة ، والغرض القريب اليسير من التعبير .

وهذه الطريقة فى تفسيره . قد يكون موسم هذا التدريب الرمضانى ، أصلح أوقاتها ، وخير ظروفها، إذ يدنوا الصائمون من القرآن و يقرب إليهم القرآن فى صومهم ورياضتهم : وينزل إليهم كما فهمنا قريبا من نزول القرآن فى رمضان .

* * *

تحدث الفقهاء ، عن الصوم ، فردوه إلى معنى الإمساك والترك اللغوى ، و يبنوه بأنه ترك الأكل والشرب ، و . . و . . من الصبح إلى المغرب ، بنية من أهله، فجعلوا قوامه هو الجوع وترك الأكل . ولما ألموا بشيء من حكمته أداروها على الجوع وأثره ؛ بل لم يكتفوا بذكر الجوع فى الحكمة ، و إنما جعلوا منه دليلا عقلياً على فرضية الصوم ، وكان مما قالوه :

أن فى الصوم قهر الطبع ، وكسر الشهوة ، لأن النفس إذا شبعت بحثت عن الشهوات ، و إذا جاعت امتنعت عما تهوى . فكان مدار هذا التدريب عند الفقهاء أصحاب الظواهر ، هو الجوع وما ينشأ عنه .

وأما الصوفية — أو متأخروهم على الأقل — فقد ردوا الصوم أيضا، إلى هذا الجوع ، وأفاضوا فى بيانه ، عند ما تحدثوا عن أسرار الصوم ، ولفتوا النظر ، إلى ما يعرضون له ، من البحث الخاص فى فضل الجوع .

عند ما يتحدثون ، عن أثر الجوع ، وضرر الشبع . إذ عدوا الجوع من أوائل العمل ، فى رياضة النفس ومجاهدتها ، توصلا إلى كسر شهوتها إلى الطعام وغيره .. وفيما عرضوا له من البيان فى الصوم وغيره ، نحس بجلاء ، أنهم قد توسعوا فى بحث الجوع توسعا كبيراً ، وفلسفوا القول فى نتائجه وطرق الارتياض عليه ،وما الى ذلك ، فلسفة هى التى قصدتها فيما عنونت «عن فلسفة الجوع»

وإنى لأوثر أن أسمعكم ، فى شىء من الافاضة ــ بعضا للمتصوفة ، فى فلسفة الجوع ، بعد ما رأينا الفقهاء يتفقون معهم ، على أنه قوام الصوم وحقيقته ؛ لنعرض قول الفريقين ، على ما نحسه من نظرة القرآن الى الجوع والطعام .

* * *

يفيض القوم ، فى بيان شرور شهوة البطن ، إلى أن يبنوا عليها ، كل شر فى الحياة الإنسانية ، منذ بدء الخليقة إلى الآن ؛ فشهوة البطن ، هى التى أخرجت آدم وحواء من دار القرار ، إلى دار الذل والافتقار ، إذ نهيا عن الشجرة ، فغلبتهما الشهوة ، حتى أكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما .. والبطن على التحقيق عندهم ينبوع الشهوات ، ومنبت الآفات ، إذ تتبعها شهوة الجنس ؛ ثم تتبعهما شدة الرغبة ، فى الجاه والمال للتوسع بهما ، فى إرضاء هاتين الشهوتين .. وتتبع شدة الرغبه ، فى الجاه والمال ، أنواع المنافسات والمحاسدات .. ثم تتولد من بينهما ، آفة الرياء ، وغائلة التفاخر ،

والتكاثر ، والـكبرياء .. ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد ، والعداوة ، والبغضاء ؛ثم يفضى ذلك بصاحبه ، إلى اقتحام البغى والمنـكر والفحشاء .. ومن أجل ذلك ، كانت كل شرور الدنيا — فى بيانهم — ثمرة إهمال المعدة ، ومايتولد عنها ، من خطر الشبع والامتلاء .. فلاعجب إذا مااهتموا بفضل الجوع ، ووقفوا عند دراسته ، مقدمين بين يدى ذلك منقولات فياضة ، من قول الرسول — عليه السلام ـ فهو ، فى نقلهم ، قد قال :

سيد الأعمال الجوع .. وقلة الطعام هى العبادة . ليس من عمل أحب إلى الله ، من جوع وعطش . أفضلـكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولـكم جوعا وتفـكرا .. جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش ، فإن الأجر فى ذلك ، كأجر المجاهد فى سبيل الله ـ لا يدخل ملـكوت السماء ، من ملأ بطنه .. كلوا فى أنصاف البطون تدخـلوا ملـكوت السماء .. أجيعوا أكبادكم ، وأعروا أجسادكم ، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل .. إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش .. أديموا قرع باب الجنة يفتح لـكم ؛ قيل : كيف نديم قرع باب الجنة ؟ قال : بالجوع والظمأ .. إلى غير قليل من مثل هذا الذى ينقله ناقلوهم فى فضل الجوع ، وعظيم أجره .

وعلى هذا الأساس يتقدمون ، فيعدون جوع المجتهدين كرامة ، وجوع

الزاهدين حكمة ؛ وجوع الراغبين كذا ، وجوع التائبين كذا ، وجوع الصابرين كيت وكيت .. وعندهم أن إجاعة الله الناس وتعريتهم فضيلة ، يخص الله بها أولياءه ، فيقول قائلهم : إلهى أجعتنى ، وأجعت عيالى ، وتركتنى بلا مصباح ، فى ظلم الليالى ، وإنما تفعل ذلك بأوليائك ، فبأى منزلة نلت هذا منك ؟ .

كما يرون ، أن الإنسان ، اذا ما وسع الله عليه ، ما يلتذ به ويشتهيه ، فانما هو بذلك يمتحنه ويبتليه ، فينظر كيف يؤثره ، على مايهواه ، وكيف يحفظ أوامره ونواهيه .. ثم يتحدثون عن المجاهدين بالجوع ، وطول المدة ، التى استطاعوا أن يعيشوها جائعين ، ويذكرون فى ذلك أرقاما قياسية ، على نحو ما يفعل أصحاب الرياضات المختلفة اليوم ويسمون فى ذلك أبطالا ، من القدامى والمحدثين ، فموسى عليه السلام، لما قربه الله نجيا ، قد ترك الأكل أربعين يوما : ثلاثين ثم عشراً ، على ما ورد فى القرآن . والمسيح عليه السلام ، كان يطوى أربعين يوما .. هؤلاء وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، وأما أهل الإسلام فيذكرون لهم مدداً مختلفة ، تبدأ من ثلاثة أيام، وتتزايد متصاعدة ، فيسمون فلاناً ، كان يطوى ثلاثة أيام ؛ وفلانا كان يطوى ستة أيام، وآخر ، سبعة أيام ، كما أن فلانا طوى عشرين يوما ، حتى انتهى بعضهم الى ثلاثين يوما ، وأربعين يوما لا يأكل ولا يشرب، ويذكرون فى هذا جماعة كثيرى العدد ، بل يرتقى بعض

أهل هذه الطائفة ، الى ستين يوما طاويا . . وعندهم أن من المعتاد القريب أن يطوى المريد يومين الى ثلاثة ؛ وتلك فى المجاهدين درجة ثانية .

وانهم لينقلون ، من قول هؤلاء الجياع ، فى أثر هذا الجوع ، وما فيه من خير و إصلاح أقوالا ، بالغت فى ذلك كثيرا ؟ فيقسم قائلهم ، بالله تعالى : أن الله ما صافى أحدا ، إلا بالجوع ؛ وآخر يقول : لم ير الأكياس شيئاً ، انفع من الجوع ، للدين والدنيا . . وقد وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ، ووضعت المعصية والجهل فى الشبع . . ثم إذا ما عرضوا لدرس فوائد الجوع ومنافعه ، وآفة الشبع ومضاره ، أشبعوا القول فى هذا كله إشباعاً كبيرا ، وأشرفوا منه على آفاق من البحث فسيحة.، فتسمع لهم فيه فوائد صحيـــة جسمية ؛ وأخرى عقلية علمية ؛ وغيرها خلقية أدبية ، ورابعة فنية ذوقية ، وخامسة دينية عبادية ، ممـا تستقيم به الحياة فى الدنيا والآخرة ،فى رأيهم .

وقد أيدوا أقوالهم فيها بالمعارف المتصلة بتلك النواحى المختلفة ، ثم بتجارب خاصة لهم ، تشهد أنهم قد خدموا فلسفة الجوع خدمة نظرية وعملية ،لا يتسع هذا المقام للاشارة إلى كثير منها . . وأنهم انتهوا بها إلى إعانة المرتاضين من مجاهديهم ، على تحقيق رغباتهم فى الجوع ، واتقاء آفات الشبع الخطرة ، فضبطوا لهم ذلك ضبطا كافياً ، إذ وصفوا الجوع الصادق ، والجوع الكاذب، وأعراض كل واحد منهما . . وكما وصفوهما وصفا نظرياً ،

أرشدوا إلى أشياء عملية تجريبية ، تعرف ذلك كله .. ثم شرحوا تدبيرات خاصة للاعتدال فى التغذية ، وللتجويع لعلها لا تزال إلى اليوم ، طريفة ، عند من يعانون هذه الأشياء الآن ، ويتصدون لها .. وقد رموا دائما ، من كل هذا ، إلى الغاية الدينية ، فى كسر الشهوة ، وإذلال النفس ، وضغط الجسد ، على ما بينا مقصدهم منه آنفا ؛ وتحدثوا عن صنيع رجالهم ، فى قتل هذه الشهوة وهزيمتها ، فحكوا فى ذلك أشياء ، قد تلتحق بالبعيد المستغرب ، عند من لا عهد له بها ، ولا رياضة عليها ..

وإن فلسفة القوم فى الجوع ، لم تلبث أن اتصلت بفلسفتهم العامة عن الحياة وغايتها ، فانتهت بهم إلى فكرة خاصة فى ذلك ، تلائم مراميهم السابقة .. فلم يترددوا فى تقرير أن الإنسان لا ينبغى له أن يطلب القوة فى هذه الحياة ، ولا أن يعدها غاية له ؛ و بينوا رأيهم فى ذلك بأسلوب نظرى ، لعلهم نسوا فيه الفكرة الإسلامية ، وجانبوا واقع الحياة الإسلامية فى عصورها التاريخية المختلفة ..

فاستمع لهم ، إذ يمضون فى إثبات أن القوة ليست غاية للحياة فيقولون : إن الله استعبد الخلق بثلاث : بالحياة والعقل والقوة ؛ فإن خاف العبد على اثنين منها ، هى الحياة والعقل ، أكل وأفطر ، ان كان صائما .. وكلف طلب القوت ان كان فقيرا .. وأما اذا لم يخف على الحياة والعقل ،

وإنما خاف على القوة ، فينبغي ألا يبالي بذلك . ولو ضعف حتى صلى قاعدا فصلاته وهو قاعد ، مع ضعف الجوع ، أفضل من صلاته قائما ، مع كثرة الأكل ؛ وتلك عندهم أرفع الدرجات ، وعادة الصديقين ، يرد فيها المجاهد نفسه ، إلى القوام، لا يبغي دونه . وهي اختيار من أعطوهم مرتبة الإمامة فيهم .

* * *

كذلك سمعتم قول الفقهاء ، في اعتبار حقيقة الصوم جوعا ـ ثم رأيتم الصوفية ، قد توسعوا في فلسفة الجوع ، ووصلوا ذلك بالغاية الكبرى من الحياة ، فآثروا الضعف مع الجوع ، على القوة مع كثرة الأكل ، ولو أثر ذلك في العبادة واقامة الصلاة .. وقد ألممنا بأطراف من هذه الفلسفة عن الجوع ، لمناسبتها هذا الموسم الرياضي التدريبي في رمضان .. فانظروا فيما جاءكم من هذه الفلسفة وقول أصحابها ، حتى نلتقي فيما يلي ، فتعرض هذا كله على ما يمكن إدراكه ، من نظرة القرآن الى الجوع ، والأكل، حيثما عرض لهما ، وتكلم عنهما ، فنقبل من تلك الفلسفة ما يقبله هدى القرآن وندرك وجه الصواب ، في سوى هاتيكم الرياضة الصائمة ؟

١٨ / ٩ / ١٩٤٢

عن فلسفة الجـــــوع

— ٢ —

ليس الجوع طابع الصوم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ، وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِين . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُون .

حدثتكم قبل عن الفقهاء ، وتعريفهم الصوم بالجوع ، وترك الأكل والشرب . . الخ.. وإدارتهم الشاهد العقلى لفرضية الصوم على فعل الجوع بالنفس ؛ وردهم حكمة الصوم إلى أثر الجوع أيضاً ، كما رأينا الصوفية يفلسفون هذا الجوع فيسببون به كل خير ، كما ينسبون إلى شهوة الطعام كل شر ؛ ويروون فى فضل الجوع ما يروون مما يعدونه حديثاً ، ويذكرون مآثر العابدين فى الصوم ومدته ، ثم ما يلبثون – على ما سمعنا – أن يربطوا فلسفتهم فى الجوع ، بفلسفة عامة فى الحياة وغايتها . فيؤثرون ضعف الجوع على قوة الشبع ، وإن أثر ضعف الجوع فى أداء العبادات ذاتها . . !

* * *

ونريد هنا أن نعرض هذه الآراء ، على هدى القرآن ، لنرى إلى أى مدى يؤيدها ، أو يعدلها ، أو يرفضها !

والاحتكام إلى الهدى القرآنى فى هذا وغيره، ورد كل شىء إليه ، هو ما نقبله جميعاً فى غير تردد . فالقرآن هو الحكم الترضى حكومته .. ولاشك.

وسنرى أن القرآن قد تحدث عن الجوع فى غير موضع ، فذكره فى آيات مكية، وذكره فى آيات أخرى مدنية . . فاستمع إليه حين يقول لقريش: « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْتِ ، الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» . فيعد نعمتى الإطعام والإيمان، اللتين خلص بهما قريشا من نقمتى الجوع والخوف .

وهو بمثل هذا يعد نعم الجنة ، دار النعيم المقيم ، والسعادة الكبرى ، فيقول لآدم « إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى» فالجوع والعرى ، والظمأ ، والضحو ، بالتعرض للشمس وحرها ، كلها آلام يأمن منها من يكون فى الجنة ، وهذا هو ألم الجوع الذى يقدم فى عد الآلام ، التى يؤمن منها الإنسان ، ويذكر قبل سائر الآلام من عرى وظمأ وغيرها —

وإذا نعم أهل الجنة بألا يجوعوا فقد شقى أهل الجحيم ، فى وصف القرآن بألا يجدوا إلا ما لا يشبع ، فقال عنهم « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِنْ جُوعٍ » .. والآية فيما فهم أصحاب العربية تنفى أن

لأهل العذاب طعاماً ما، لأن الضريع الذى قيل إنه لاطعام لهم سواه ، إنما هو شوك يابس سام ، تتحاماه الإبل ، آكلة الشوك بطبعها ، وهذا الضريع لن يكون طعاما للانسان ، فالمعنى إذن أنه لاطعام لهم. وفى التعبير على هذا الوجه مبالغة فى نفى الطعام ، كما قد يقال : لا ظل لفلان إلا الشمس ، أى أنه يعدم الظل ، و يجد ما ليس إلا ضحوا وشمسا .

وعلى هذا ندرك أن الجوع والحرمان من الطعام لون من العذاب القاسى، فى تعبير القرآن الأدبى ، وحسه الفنى ، الذى نفزع إليه ، كما اتفقنا ، لمعرفة نظرة القرآن ، إلى الجوع .

* * *

ونمضى فى فهم نظرة القرآن للجوع فإذا هو يعده نقمة غاضبة ، وعقوبة اجتماعية للذين يكفرون بالنعم ، فى قوله « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ؛ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

وأصحاب الشعور الفنى يدق إدراكهم للتعبير عن ألم الجوع بقوله. فأذاقها الله لباس الجوع، فإن الإذاقة وهى وجدان الطعم، قد استعملت هنا مع اللباس لما جرت الإذاقة مجرى الحقيقة ، وشاعت فى البلايا ، والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فقيل ذاق البؤس ، والضر ، وأذاقه العذاب؛ وكان اللباس ، بمعنى الاشتمال والإحاطة . فالمعنى إنهم ذاقوا الألم الشامل المحيط ، وكان

التعبير على هذا الأسلوب قويا عنيفا فى تصوير ألم الجوع . وكان تعبيراً لم يتكرر فى القرآن؛ وخص به ذلك المقام من الحديث عن الجوع وقسوة وقعه .

ولو قدر المتذوق لأسلوب الكتاب المعجز ، عطف الخوف على الجوع ، فى غير موطن ، لشعر أن ألم هذا الجوع يهز النفس هز الخوف ، ويضيع الأمنة والراحة النفسية ، التى هى قوام الشعور بالحياة والاستقرار فيها .

وقسوة هذا الجوع وعنفه تتمثل جلية ، فى عد القران إياه وسيلة للابتلاء الكاشف عن مدى طاقة الصبر ، وقوة المقاومة فى الذى يبتلى به، .وكذلك يقول الكتاب الحكيم « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » فالجوع مما يبتلى بشيء منه الناس، ليستبين ما فيهم من قوة احتمال .

ولقد نذكر ما قاله بعض المفسرين من أن الابتلاء بالجوع هو الصوم المفروض ؛ والابتلاء بنقص الأموال والثمرات هو الزكاة المفروضة ، ولكن .. أحقا يرجح النظم القرآنى ، والنسق القرآنى هذا الفهم ؟ .

وهل يقدم الخوف المروع على الجوع الذى هو جوع الصوم ، ويتجه النسق القرآنى إلى وضع فريضة الصوم فى هذا الإطار غير المحبب ! !

وحقا يوضع فرض الزكاة مع نقص الأنفس الفاجع ، وتضفى على الفريضة

تلك الظلال القائمة من نقص الأنفس وما يعادلها من المال ! ! ليس ذلك مما يتلقاه للذوق الفنى القرآنى بقبول .

* * *

ولعلنا نستطيع أن نقول بعد الذى أنسنا إليه من هدى القران : إن ما اتجه إليه القوم من تلمس الآثار فى فضل الجوع ، وفلسفتهم لذلك الجوع على ما سمعناها منهم ليس مما يرحب به هدى القران كثيراً . . وإن الروح الحيوية التى امتاز بها الإسلام ، وقررها كتابه الكريم لا تهش كثيراً لما أطال به الصوفية من اعتبار الجوع سيد الأعمال ، وأنه أفضل العبادة أو مخ العبادة ، وأن ترحيبهم بما ينتهى إليه الجوع من الضعف حتى عن أداء العباده المفروضة كالصلاة ليس مما يأتلف كثيراً مع هذه الروح الجادة النشطة ، التى يحرص عليها الإسلام ، ويعتمـــد عليها فى اقاء أهله الدنيا وحياتهم فيها . وإنما هى روح دخيلة على الإسلام ، مما خالطه من فكر غريبة عنه ، هندية أو غيرها ، نعرف إسرافها فى تعذيب الجسم وإجهاده ؛ وقد عرف أن هذا التصوف قد تأثر بكثير من مثل هذه الآراء ، وغيرها من الأفكار النظرية والعملية ، التى امتدت فى الميدان الصوفى ، إلى حد المساس بأمهات العقائد والأصول ، وجرى حولها الخلاف الطويل العريض ؛ وثارت بها مشكلات فى حيا الصوفية ؛ واتهم من أجلها كبار منهم بما انتهى إلى قتلهم . . على ما عرف التاريخ من ذلك .

وأحسب أنهم فى مثل هذا الجو قد أكثروا من القول فى الجوع ، وأن أفضل الناس أطولهم أيام جوع . وأن الشبع يمنع من دخول الملكوت وأن الإجاعة والعرى تجعل القلب يرى الله . . وأن إدامة قرع باب الجنة إنما هى بالجوع والعطش . وأن تضييق مجارى الشيطان من ابن آدم إنما يكون بالجوع والعطش . إلخ ما أوردنا أمثاله فى الفصل الأول من هذا الحديث عن فلسفة الجوع ، وهو ما لا تطمئن النفس إليه بعد الذى رأينا من عرض القرآن للجوع هذا العرض الذى تصوره آياته المختلفة ، فى المناسبات المختلفة . . وما كان القرآن ليخرجه هذا الإخراج ، وهو يقدره بعض هذا التقدير ، الذى يسرف فيه الصوفية ، ولا يهمله الفقهاء . وفى آداء القران المعجز توجيه نفسى كبير ، لا يفهم الاسلام إلا باستجلائه .

وليس بكثير أن نقول : إن نظرية القوم فى الجوع ليست ذات أساس سليم ، وهى غريبة عن الروح الإسلامية . بل إنها ليست فى شىء من روح القرآن فى مثل قوله : «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، ثُمَّ تُوبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِين » . وما عرف فى توجيه القرآن من الأمر بإعداد القوة بقوله : «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم» .

وإلى جانب ذلك القرآن ما لا بد أن يكون معه ، بيانا له وتأييدا ،

من الحديث والأثر ، الذى لا يلتقى مع شيء مما رددوه من إيثار الضعف ، والعزلة ، ونسيان نصيبهم من الدنيا ، وتفضيل الجوع بضعفه المقعد . . على مايروونه مما لا ينجو من نقد الناقدين القدامى أنفسهم .

* * *

و إذا اطمأننا إلى هدى القرآن ، عن هذا الجوع ، وحكمه على فلسفتهم ، فإننا نقول فى تقدير عمل الفقهاء وعمل المتحدثين أمس واليوم ، عن الصوم ، وحكمته : إن الوقوف فى ذلك كله عند ترك الأكل والشرب ؛ وإن عد الجوع ، أساساً للصوم وجوهراً فيه ؛ وإن رد الفضل فيه والتعبد به إلى الجوع . . كل ذلك وما يدور حوله ليس من الفقه الصحيح لجوهر تلك العبادة وفرض تلك الفريضة . . وإن ذلك إنما هو تتبع لليسير أو التافه ، من عناصر تلك العباده ، لأن فيها ما هو أدق وأحكم من هذا الظاهر اليسير ، الذى يتعلل الناس فيه بالضعف أو العجز ، أو الجهد ، ولو قدمت إليهم الفريضة ؛ تعريفا وتعليما ، أو حكمة و إقناعاً ، فى أفق اسمى من ذلك وأكرم لسكان التملل بمثل هذه الظواهر أخفت صوتا ، وأيسر خطراً . .

وهؤلاء الصوفية — على ما نخالفهم فيه من فلسفة الجوع — قد حدثوا عن صوم القلب ، عن الهمم الدنية ، وعن صوم السمع والبصر ، واللسان عن تعدى الحدود ، وعن صوم اليد والرجل ، عن البطش والسعى إلى المنهى عنه . . الخ من تلك المرامى الكريمة ، التى يرى الإسلام قد سما إليها ،

ولفت لها هديه القيم ، حين يقرن غير المجسم من أفعال الجوارح الخارجية بالمادى المجسم ، من تلك الأفعال ، فيقول : « لَوْ لاَ يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمِ الإِثْمِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » . . ويدل بذلك على أن فى المقولات والمسموعات مايحرم على المستمع والقائل ، مثل تحريم أكل السحت ، ومن هنا يضع القول الآثم إلى جانب أكل السحت، ويضع سماع الكذب إلى جانب أكل السحت . ويقول : « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » .

* * *

وليت الفقهاء قد اتجهوا نوعا ما إلى مثل هذا الاتجاه فى الصوم ، ولم يقفوه عند الأكل والشرب ، والشهوات المجسمة ، بل وضعوا إلى جانبها فى الحرمة الآثام المختلفة ، كما رأينا فى صنيع القرآن ، حين جعل آفة اللسان فى قول الإثم ، وآفة الأذن فى سمع الكذب كالأكل الطاعن المزدرد للسحت .

وما كانوا بذلك يجاوزون الضبط الظاهر للأفعال كدأبهم، ولا يلتحقون بالصوفية ، فى حقائقهم المعنوية ، بل كان الفقهاء بذلك مهتدين بصريح هدى القرآن فى هذا السبيل ، ومنهجه فى التسوية بين أخطاء الجوارح المختلفة .

ولقد كانوا واجدين ذلك فى استعمال القرن نفسه للصوم فى الإمساك عن الكلام ، حين يقول على لسان مريم : إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ

صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا » ، فجعل الصوم إمساكا عن الكلام ، فليس من البعيد مع هذا أن يتسع أفق الفقهاء فلا يجعلوا الصوم إمساكا عن الطعام والشراب وما إليهما من الجسميات ؛ دون التفات إلى غير ذلك من آثام الجوارح الأخرى .

ولو قد أقصرنا فى هذا ، ولم نلتمس عند الفقهاء ما رجونا من تنظيم عمل كافة الجوارح بالصوم لبقى ما لم نطمئن إليه ، من قصر عنايتهم على الأكل واهتمامهم بالجوع ، ذلك الاهتمام الذى يتكامل مع إسراف الصوفية فى الاهتمام الأكبر بذلك الجوع أيضاً .

* * *

على أننا لو لم نعتصم بالحس القرآنى ، وهديه الفنى المرهف فى الجوع ، وتركنا الفقهاء يجعلون الصوم أول ما يجعلونه إمساكا عن الأكل والشرب وتركنا الصوفية يكبرون أمر الجوع هذا الإكبار المسرف ، فإنا سنرى أن جوع الصوم ليس بشىء ، ولا هو فى درجة من الأهمية ، التى أشاد الفقهاء بها فى حكمة الصوم ، أو أكبر الصوفية شأنها فى الرياضة .. لأن جوع رمضان هذا قد يكون جوع اثنتى عشرة ساعة ، فى يوم شات قصير ، وهو أمر هين ، لا أحسب أن سيتحقق به الكثير ، من ترك الشهوات ، أو عظم النفس ؛ أو التشبه بالملائكة ، أو التخلق بأخلاق الله ، وأمثال ذلك مما يعدون .

بل حين يكون اليوم صائفا فهو جوع بضع عشرة ساعة ، ليست فى شىء من الأيام التى يتفاضل الصوفية بعدها ، و إحصائها ! ويصلون بها إلى بضع عشرات من الأيام ومهما تكن مشقة هذا الجوع ، فى اليوم القائظ الطويل فقد يكون خيراً وأهم من احتمالها، احتمال إمساك الجوارح الأخرى عن آثامها وضلالاتها التى ترتكبها فى الدنيا !

أيها المهتدون بهدى القرآن :

أحسبكم تقدرون ما قصد إليه هذان الحديثان عن فلسفة الجوع ، فى عمل الفقهاء ورياضة الصوفية ، وأن هذا الجوع ليس أفضل العبادة ، ولا مخ الطاعة ، بل نقول فى طمأنينة : إن هذا الجوع ليس مخ الصوم نفسه ، وليس من الصواب أن يكون الجوع طابع الصوم الظاهر عند المتكلمين فى الحكمة وفضل الصوم . . وحبذا الصوم إمساكا عن جميع الأهواء والأخطاء ، والعوائد الواهمة ، والفاسدة ، ليكون الصوم رياضة مصلحة للنفوس ، مجدية على الفرد والجماعة ، مروضة على ما لا يسهل الارتياض عليه فى سائر الأوقات لضعف ، أو إهمال ، أو عدم رقابة . . فيكون رمضان وسيلة إلى التقوى التى رجاها القرآن وختم بها آية هذا الفرض : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . . . والسلام على من اتبع الهدى ؟

٢ — ١٠ — ١٩٤٢

موسم خـــــير

— ١ —

رمضان تدبير حيوى للاصلاح الاجتماعى

... سلام الله عليكم ورحمته «وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» .

.. فى ظلال التقى ، وأفياء الرضوان ، من شهر رمضان ، الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان ، أعود لأحدث مستمعى الكرام ، من هدى القرآن ، عن موسم خير . . ولئن هنأتكم بهذا الموسم ، فإنما أهنئكم بما فى قلوبكم ، من إيمان بذلك الهدى ، ومافى نفوسكم ، من عزم على الانتفاع ، بتدبير لحياتكم ، حتى تكونوا فيها أعزة ، ذوى قوة ، تشرككم فى شئونها ، وتهيئكم لاقتيادها ، مستخلفين فى الأرض ، كوعد الله لكم .

... تحدثت قبل الآن ، عن رمضان ، وأن هذا الصوم فيه ، تنبيه نفسى ، إلى الطعام ، وفى استعمال القرآن أن أكل الطعام علامة البشرية ، وآية الاحتياج ، فكأنما الصوم تذكير متصل ، بضراعة الحاجة ردا لهؤلاء الآدميين الى حدودهم ..

وتحدثت عن نزول القرآن فى رمضان فاطمأننت ، من الاستعمال القرآنى نفسه إلى أن النزول قرب ويسر ، وإنزال الشىء هو تقريبه والهداية اليه ؛ ففى شهر رمضان ، والناس من الصوم فى

حالة خاصة،يقرب القرآن إلى نفوسهم ، و يستبينون منه الهدى ، فى تفسير الحياة وتدبيرها ، وهو فى هذا فرقان واضح ، تميز به عصر عن أعصر قبله، من تاريخ الإنسانية

كما تحدثت فى رمضان ، عن فلسفة الجوع ونظر كل من الفقهاء والصوفية ، إلى هذا الجوع ، وما أفاضوا فيه ، من أمر شهوة البطن وخطرها ، وأنها من آكد مصادر الشرور فى العالم ، وما وصلوا به هذا ، من الفكرة العامة فى الحياة ، وأن الضعف فيها خير ، فرفضنا ذلك كله ؛ وأنسنا ـ من هدى القرآن نفسه ـ إلى أن هذاالجوع نقمة ومحنة ، وليس لجوع الصوم ، القصير أثر مما ذكره الصوفية ، عن جوعهم الطويل المدى ؛ وما جوع الصوم إلا ضرب من الأخذ بالاعتدال وعدم السرف فىالشهوات ، ولوعمم هذا الاعتدال ، فى صنوف الشهوات جميعا ، لتحققت التقوى المرجوة بالصوم . . وتبعها الكثير من الخير . تحدثت عن هذا وما إليه ، من شأن الصوم قبل الآن . . وأريد لأتحدث عن الهدف الاجتماعى والتدبير الإنسانى ، فيما يمكن أن يرجى من هذا الموسم السنوى ، الذى يستهلك فى كل عام شهراً .

قيل قديما وحديثا : إن هـــــذا الصوم عبادة روحية ، تسمو بها الروح ، وتستعد للفيض الآلهى ، وتنال لذة المعرفة والهداية ، ولذة

القرب[1] . وهى معان لطاف ، تنتهى إلى لون من التجريد الصوفى ، يخشى أن يبعد بنا عن الحياة الواقعية ، كما بعدت الصوفية عن هذه الحياة بفلسفتهم فى الجوع ، فانتهوا منها إلى تفضيل الضعف على القوة ، فيما أشرنا إليه من قولهم قريبا .

ونحن إنما نريد أن ننظر ما فى هذا التدبير الرياضى ، من هدف اجتماعى ، يتصل بالحياة الواقعة العاملة ، التى عرفنا الإسلام يعنى بها ويطلب لها ، ويصلح من شأنها . إصلاحه العملى ، غير المترهب ولا المتجرد ، فى واقعية عاملة ، تشعر بمثالية سامية ، يدفع إليها الوجود الإنسانى، ليبلغ منها أقصى ما تناله قواه ويسعف عليه اجتهاده .

نريد لنلتمس هدى القرآن ، فى وصل عبادة الصوم هذه ، بالحياة الاجتماعية العاملة ، فإن عرفنا منه ذلك الاتجاه ، حل لنا أن نتبين مداه ، وإن أحسسنا منه غير ذلك ، كففنا عن المضى فى هذا السبيل وابتغينا غير هذا الهدف الاجتماعى ، من الروحانية وما إليها .

وإنكم لتتلون من آيه الكريمة فى الحديث عن الصوم عند المناسبات المختلفة ، ما يحمل على النظر والتأمل.. فهو فى تشريع الصوم نفسه يجعل

---

(١) من حديث رمضان يوم أول رمضان سنة ١٣٦٠ هـ لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر (المرحوم) الشيخ محمد مصطفى المراغى.. وهو من قولهم فى حكمة الصوم : إنه تخلق بخلق الله ، وتشبه بالملائكة ، ينال به القرب من الله تعالى .

بدله على من يضيق به . إطعام غيره ، ويقول« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » ثم هو فى كفارة اليمين، يجعل الصوم بديل طعام المساكين أو كسوتهم ، أو تحرير رقيق ، ويقول « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ » وهو فى الإخلال ببعض أعمال الحج ، يجعل الصوم معوضاً و بديلا، يعوض العجز عن العمل، ويقول« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » . وعند عدم وجود الهدى. يقيم الصوم مقامه ، قائلا « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » ..وعند قتل المحرم الصيد يقول « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً » . ثم هو فى أبعد من ذلك ، عند علاج مخالفات أو جنايات اجتماعية ، يعمد إلى الصوم ، ففى كفارة الظهار ، عند عدم القدرة على تحرير رقبة مؤمنة يقول : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » بل فى كفارة القتل الخطأ يقول : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ . تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً .

وإذا ما كان القرآن يهدينا إلى ابدال الصوم ، والاستبدال به ، فى مواطن اجتماعية مختلفة الأهمية كما تلونا .. وإذا ما كان يجعل بدل الصوم إطعام مسكين ؛ ويجعل الصوم بدل الإطعام والكسوة وتحرير الرقيق ، وإهداء الهدى — وهو لون من الصدقة — .. يجعل بدل تلك الأعمال الاجتماعية الإصلاحية كلها صوما ، فهلا يؤذن ذلك كله ، بأن من هدى القرآن ، أن يصل هذا الصوم بالحياة الجماعية العاملة ، وصلا وثيقا ؟... أحسب أن ذلك من الأمر جلى واضح . فاذاما كان يتعبد الناس بشهر من الصوم ، فهلا يكون لهذا الموسم ، أثر عملى فى حياة الجماعة ، عمد إليه مشرع الصوم ؟ . أحسب أن هذا كذلك جلى من الأمر واضح وهو مما تحتاج إليه الجماعات كل حين فى الأصلاح والاستصلاح . . فما هو ؟؟

إن الفوارق الاجتماعية ، بين أفراد الجماعات الإنسانية ، من حيث قدرة هذا ، وعجز ذاك ، ويسر هذا ، وفقر ذلك . الخ هذه الفوارق كانت — ولا تزال — مشكلة من كبريات مشكلات الحياة ، سيرت تاريخها وأهاجت أحداثها ، وخلقت مذاهبها الإصلاحية ، واهتم بها الفيلسوف ، والمتدين ، والعالم.. كل فى مجاله . فكيف ، وبماذا ، ومتى ، يتم حل هذه المشكلة نهائيا ؟..مازال ذلك فى ضمير الغيب .. ولكن

الانسانية كانت — ولاتزال أيضاً — تعتمد فى تخفيف هذه الفوارق أو تهوينها ، على أن تأخذ من هذا لتعطى ذاك ـ فهى تبتكر وسائل الأخذ ، وتدبر له تدبيرا مختلف الألوان والصور ، متحد المرامى والغايات ، وإنك مثلا لترى اليوم فى البلاد الغربية ، حيث يشتد الشتاء ، ويقسو البرد ، قسوة مرعبة ، تستحيل معها الحياة ، على العارى ، والجائع ، ومن لامسكن له ، وحيث يكون هذا العامل الجوى الرهيب — على ما يبدو لى ـ كاشفا قويا لبشاعة الفقر ، وشناعة الحاجة ؛ ومغريا بعيدا بآراء متطرفة ، ومذاهب جامحة .. فى هذه البلاد يحتاجون إلى إعانة الشتاء ، يأخذون من الواجد ليعطوا الفاقد ، ويصرفون إلى العارى بعض ما يثقل الكاسى .. ففى هذه الإعانة يتذرعون بالشتاء ، يذكرون بشدته ، ويستحثون بقسوته ؛ ويجعلونه موسم الجمع ، ومناسبته ليظفروا . ذلك بما يكفى أو يفى . فيتبين لك من هذا المثل ، حاجة الجماعة إلى التفنن فى إنجاح هذه الوسيله الشائعة ، فى معالجة الفوارق الإجتماعية ، وسد الحاجة الحيوية ، واختيار المواسم لذلك ، والاعتماد على المحرضات الدافعة فيه

وأريد لأفهم من هذا التدبير السنوى ، فى رمضان وصومه أنه لون من هذا العلاج ، أو صنف من ذلك الإصلاح تداوى به المشكلة

العاتية للفقر ،والحاجة، والعجز، والعوز ، على أساس الأخذ من هذا لإعطاء ذاك، فى موسم توافرت فيه الدوافع، وتعاونت فيه المؤثرات . . وذلك فى رمضان وصومه واضح جلى ، و بخاصة بعد ماعرفنا من الرأى فى حكمة الصوم وأثره على النفس .

أو ليس الصوم فى الذى قلنا أول هذا الحديث تذكيرا متصلا بضراعة الحاجة وعلامة البشرية، وهو بذلك رد لهؤلاء الآدميين إلى حدودهم، وكبح لطغيانهم ؛ فيكونون ، أقل تكالبا ، وأقرب بذلا ، وأحيا شعورا بوحدة الإنسانية .

ثم أليس هذا الصوم ـ الذى قلنا آنفا كذلك ـ حالا نفسية خاصة تقرب القرآن إلى نفوس الناس ، فيستبينوا منه الهدى فى تفسير الحياة وتدبيرها، فهم بهذا القرب واليسر الذى فسرنا به نزول القرآن فى هذا الشهر يحسنون و يعطون فى سخاء وطيبة نفس .

و بعد : أليس الصوم ــ كما سبق أيضا ــ جوعا، هو ضرب من الأخذ بالاعتدال وعدم السرف فى الشهوات، لو عمم فى صنوف الشهوات جميعاً كما هو فى الأكل والشراب لكانت به التقوى المرجوة تعدل أنهم الإحراز، وتقلل التنافس، وتيسر الضائقة ، وتسعف المحتاجين .

ثم بعد هذا وذاك.. أليس هذا الموسم السنوى للصوم هو الذى ربطت به الضريبة الثانية، من ضرائب الأخذ فى الإسلام، من الواجد لأعطاء الفاقد ألا وهى صدقة الفطر، بعد زكاة المال؟. من أجل ذلك كله وما أليه — مما يضيق عنه الوقت والقول — أشعر أن الهدف الاجتماعى لهذا التدبير التعبدى فى رمضان :أنه موسم خير يقام سنويا لعلاج مشكلة الفوارق وتذليل مصاعبها.

وفى سائر التشريع الاسلامى ما يعمل على إنجاح هذا الموسم إنجاحا قويا، واضح الأثر

وإن فى حياتنا اليوم، ومجال تفكيرنا ما يتسع القول فيه بعد، بيانا لمدى ما نصيبه من فوائد فى موسم خير كهذا .. هيأكم الله للانتفاع بهدى القرآن فيه . والاستفادة من خيره فى إصلاحكم الاجتماعى ..

— ٩ / ٩ / ١٩٤٣ —

موسم خير

- ٢ -

مواسم الدين ومراسم فرص للإصلاح الاجتماعي

سلام الله عليكم ورحمة . . إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

تحدثت عن الهدف الاجتماعي لهذا الصوم فأحسست من حديث القرآن ، عنه في مختلف المواطن ، أنه يصل الصوم بتدبير الحياة ، وصلا يسعني معه ، أن أشعر بتقديره الاجتماعي لأثره فيها ، فقدرت أن يكون قد جعله موسماً ، لعلاج المشكلة العاتية ، مشكلة الفقر ، والفوارق الاجتماعية بين الناس ، وأنه قد تخيره موسما سنوياً للخير ؛ تسخو فيه النفوس ، التي حورب طغيانها ، وذكرت بحاجتها الآدمية .. والتي تهيأ لها الجو النفسي والروحي المقرب من مصادر الهدى القرآني ، والتي حدت شهوتها ؛ وكبح إسرافها ، بقدر من الحرمان مصلح لها . .

وإذا ما كان المديرون ، على اختلاف منازعهم ، يتخذون العدة لإنجاح

مثل هذه المواسم التى لا يزال عليها المعتمد فى تخفيف وقع هذه الفوارق، وتعو يض ذلك الحرمان فأننا لنحس أن إعداد الإسلام لإنجاح هذا الموسم ، موسم الخير فى رمضان يعد من أفضل التدبير المحقق للغاية المرجوة .. فالناس فى مثل إعانة الشتاء مثلا ينتفعون بالأثر الخارجى كقسوة البرد ، حين يعتمد الإسلام على الشعور الداخلى ، والإحساس الباطنى ، الذى يمده الوجدان المتقد ، والنفس المؤمنة ، بعد إذ وضعت فى حال مادية ملائمة .. ولقد أقام حول هذا الموسم الصوفى محرضات قوية التأثير والتذكير ، من الشعور العام ، واللفت إلى أصل العقيدة ، وأساس الدين ، بجعل رمضان شهر القرآن ، و إذا ما كان الناس يتداعون فى مثل هذا الخير ، بمعنى قومى أو إقليمى ، فقد عمد القرآن ، إلى المعنى الإنسانى العام ، الجامع الذى ارتفع على العصبيات والروابط الضيقة ، فأخذ الناس جميعاً بفريضة عامة ، توحد وقت طعامهم ، وقد وحد قبل ذلك قبلتهم ومصلاهم ، فركز شعورهم بالوحدة تركيزا .

وقد عرفنا أن العطاء الثانى من البذل الإسلامى ، وهو صدقه الفطر ، قد وقتت بموسم الصوم ، فاطمأننا إلى هدفه الاجتماعى ، فى جعل رمضان موسم خير ، يصلح به أمر الناس ، وتعالج جماعتهم نقصها ، ورجوت أن نتتفع اليوم بهذا الموسم ، انتفاعا واسع المدى ، بعيد الأفق ، فيما

نعانيه من إصلاح اجتماعى ، قوى اليوم تنبهنا له. ؛وذلك ما نحاول التحدث عنه بعد الاطمئنان إلى المرمى الاجتماعى؛ لفريضة الصوم السنوية.

* * *

أن الإحساس يجعل رمضان موسم خير لإحساس لم تخطئه القلوب الاسلامية فى حين ما ، بل شاع على الألسن أن رمضان شهر الخيرات ، وشهر الرحمات ، وشهر الطاعات . وما هو إلا أن يوجه هذا الشعور توجيها مثمرا لننتفع بذلك الموسم انتفاعا صالحا ، بعيد الأثر فى الحياة ، وبخاصة بعدما أدركنا أن الإحسان الفردى يوشك أن يكون عملا ضائعا مبدد الفائدة ؛ وأن الإحسان المنظم ينسق تلك الجهود ، ويوجهها ويضاعف الانتفاع بها، ويعمد إلى ألوان من الإغراء والتفنن المفيد المجدى على هذا المجتمع الشرقى، البائس، المريض، الجاهل، أحوج المجتمعات للاستفادة بمثل هذا الموسم، والاعتماد فى إصلاح شأنه على نتائجها .

ومن هنا أشعر أن نجاح موسم الخير فى رمضان خليق بالتفكير الصحيح منا والتدبير الدقيق ، وتركيز جهد الأفراد والهيئات الشعبية، بل الهيئات الرسمية كذلك، تركيزا يبارك آثاره ، ويعود منه بخير النتائج على الجماعة الاسلامية؛ بل الشرقية كلها على اختلاف نحلها.

وقــــد عودنا القرآن فى تدبيره الاجتماعى ، ألا يمس

سوى الأصول الكبرى، للإصلاح الإنسانى ، تاركا ماوراء ذلك ، من تفصيل للتدرج الحيوى ، والجهاد العقلى الإنسانى ، ينتفع فى ذلك بكل ما يسعفه عليه نشاطه ، ويؤهله له تقدمه ؛ ويقدر الاسلام فى ذلك اختلاف الأحوال ، وتغير الأزمان . .

من أجل هذا يكفينا من البحث عن الهدف الاجتماعى للصوم ، أن نجد فى القرآن ، ما وجدنا من الاتجاه إلى ربط هذه العبادة بحياة الأمة، لننظر فيما وراء هذا من تفصيل وتنسيق، مهتدين بتجارب الأمم ونتائج الدراسة فى إنجاح هذا الموسم الخيرى فى رمضان، حتى نصيره عاملا فعالا بعيد الأثر فى إنعاش الحياة، وتلافى ظواهر النقص فى نواحيها المختلفة، من صحية وعلمية ، وعملية ، على نحو ما تفعل الأمم الشاعرة بحق أفرادها فى الحياة الكريمة ، السعيدة، الملتمسة لأسباب العزة والمنعة فى معترك الدنيا .

ولو أردنا تحقيق هذه الغاية من موسم الخير فى رمضان لوجب أن نسعى إلى ذلك بتفكير عملى إيجابى جاد ، وألا نعتبر ترديد القول إصلاحاً، ولا براعة الإنشاء جهاداً.. ولئن كنت قد خشيت — فى حديثى السابق — من النزعة التجريدية الصوفية فى بيان مزايا الصوم فإنى لأشد خشية لهذا الضجيج الكلامى الذى يعنى فيه المعنيون بالشئون

الإسلامية أكثر وقتهم وجل نشاطهم . وإنه لمن صميم واجبي ألا أعفيهم ـ في هذه المناسبة ـ من كلمة حق لابد لهم من سماعها .. فقد شاع فينا شيء من النشاط في تأليف الجمعيات الدينية ، المختلفة الأسماء والنعوت ، المتفقة جميعاً في الخطة والمنهج . . فهو المركز المعد ، والتليفون إن كان . والمشتركون والاشتراكات ، والأعضاء ، واللجان ، والرياسة .. وصحيفة ضئيلة كذبالة يعبث بها الهواء .. تختفي حيناً لتبدو مهزولة شاحبة ، تردد أقوالا معادة ، قد حملتها من قبلها الكتب ، ولم تحرر ذلك التحرير الذي عرفته الثقافة الإسلامية في عصورها السعيدة . . فإذا ارتفع صوت هذه الصحيفة بفرقة ، وخلاف متفيهق على مسألة لا هي في صميم الدين ، ولا في لباب الحياة . . . أما حال قومها وحيويتهم ؟ أما ضعفهم الصحي ، والعقلي ، والعملي ؟... أما ذلتهم وعزلتهم فلا شيء في هذا إلا فخر بالماضي الباهر والميراث الفاخر ؛ وما لدينا من إصلاح للسماء والأرض ، وما نملك من تنظيم الدنيا والآخرة . . . لكن بعيداً عن العمل .. متناسياً للواقع . . وليست تلك روح الإسلام ، ولا هي من خطته في قليل أو كثير ... فإنما الإسلام هو التدبير الفعلي ، والإصلاح العملي ، والتقويم الواقعي . . . فمتى تتكون هكذا جماعاتنا الدينية : نشاطاً يدخل البيوت ، بل الأكواخ ليتفقد حاجة المحتاج ، ويدفع ألم المتألم ، ويربط على قلوب الخائفين ، ويقوي عزمات المجهدين ، في كل مدينة ، وفي كل قرية بل في كل حي وخطة ، وكل شارع وزقاق ، غير مهتم بأساليب الجماعات

السياسية، من إدارة عالية، وصحافة صاخبة، ودعاية كاذبة، فما هكذا الدين ولا هكذا الخدمة الدينية التي نرجو بها صلاح الحياة الإسلامية والشرقية. ومعذرة - يامستمعي الكرام - عن هذه النفثة التي بعثها اليقين بضرورة التفكير العملي، والتدبير الإيجابي لإنجاح موسم الخير في رمضان أو غيره، من عمل وراء هذا الكلام الذاهب في الهواء ..

وإذا عزم الأمر فصدقنا الله النية على العمل الجاد نظرنا في إيراد موسم الخير الذي نرده على مرافق الحياة، وجدنا له موارد دائمة وأخرى متجددة.

فمن الأولى فدية الصوم كما أسلفنا ... وهي طعام مسكين، ثم كفارة الفطر في بعض أحواله؛ وهي إطعام ستين مسكيناً .. ثم زكاة رمضان، زكاة الصوم كما يسميها الفقهاء، وهي واجبة عن كل كبير وصغير، على اختلافهم في وجوبها عن ظهر غنى؛ أو وجوبها على كل من يملك زيادة عن قوت يوم لنفسه وأهله(١) ...

تلك الموارد وما إليها لو أشرفت على جمعها هذه الهيئات الدينية التي التمسناها، متصلة بالحياة، متغلغلة في صميمها لجمعت منها كثيراً جداً، أفضل مما تؤتيه ضريبة راتبة، تشرف عليها سلطة حاكمة مجبرة.

ثم إن وراء ذلك الموارد متجددة تمدها روح الخير، العامة، التي امتاز بها رمضان، وتركت في التاريخ ظواهر حافلة كأن المعروف منها في مصر مثلا فخماً فياضا .. وفي روح الخير هذه

---

(١) الأول رأي أبي حنيفة؛ والثاني رأي الشافعي.

مايهيئ للقوامين على الشئون الدينية سبلا مجدية ، ما أكثر مايستطيعون أن يصيبوا منها ، لو تفننوا فى استثمارها بأساليب ، محدثة ، لبقة ، من سمر عف وافتنان مؤدب ، وتجمع طاهر ، يلتزمون فيه حدود الفضيلة ، فيزجرون أولئك الذين لايعرفون طريق الخير المزعوم إلا فى العرى ، والسكر ، والعهر والخبائث .. ليعلموهم أن الخير الذى يجىء من طريق الخير أروع مما يجىء من هذه السبل المنكرة ، التى تصدق فيها القولة القديمة : تزنى وتتصدق ، ليتها لا تزنى ولا تتصدق . . من هاهنا يجرب هؤلاء الدينيون قواهم فى الاتصال بالحياة من نواحيها المختلفة .

* * *

.. إذا صح العزم والتمسنا القوى المنفذة لهذا الجد ، فان هناك لجيشا لجبا يقوم بذلك ، فهاهم أولاء طلاب العلم الدينى فى نشاطهم الحر ، وعددهم الوافر ، وإنهم لكثيرون .

ثم هاهم أولاء أئمة المساجد ، فى معاقل للخير موزعة أحسن التوزيع نافذة فى الحياة أمضى النفاذ .

وهاهم أولاد وعاظ الدين وإنهم لقادرون مؤثرون .

ثم وراء أولئك جميعا أعضاء الجماعات الدينية ، حين يتحول إخلاصهم التربص إلى عمل جدى ما أكثر ما يستطيعه هؤلاء وأولئك ، وما أكثر ما يظفرون به فى موسم للخير، يطول شهرا ، وما أقوى أثر ذلك فى تسيير

الحياة وإصلاحها ،.. وما أفسح ميادين هذا النفع العامل ، الذى يتهيأ له بالتفكير والتدبير أكثر مما أشرت إليه هنا .

* * *

ما تحدثت بشيء من هذا الهدى إلا وأنا أرمى منه إلى سيادة مبدأ الفهم الاجتماعى الحر للدين، والاطمئنان إلى التفسير العملى لمواسم ومراسم لتكون مراسم حيوية ومراسم خيريه ، ولتصبح أيامه فى وجودنا أيام انهاض وإنعاش ، وأعياده لنا أعياد وإسعاد وإعزاز .

وكذلك دعوت من قبل إلى أن يكون احتفالنا بمولد الرسول عليه السلام عملا شاملا ، فنجعل يوم المولد هو يوم اليتيم فى الشرق ،وعيد اليتامى ، حتى ليعتمد المصلحون العاملون عليه فى حل مشكلات اليتامى ، وإزاحة مصاعبهم وما برحت مكانى يومذاك حتى جمع لذلك مال ـ ثم هآنذا اليوم أدعو إلى أن يكون رمضان ،فى هذا الشرق موسم خير سنوى يدبر له التدبير الناشط الذى يرده موسما ناجحا بعيد الأثر فى حياة جماعة ناهضة نلتمس القوة والعزة .

ألا لهذا الفهم الاجتماعى للدين ،والتناول العملى لنظمه دعوت،ودعوت وسأدعو ما انفسح أجلى وعملى، راجيا أن يكون ذلك يوما فكرة شاملة ، وحقيقة شاخصة ..سائلا الله . أن يهديكم بهدى القرآن ، وينفحكم منه سلاما ورحمة؟

— ١٩٤٣/٩/٢٣ —

الدين والحياة

الاصلاح بالدين عمل يتطلب قدرة وخبرة

ســـلام الله عليكم ورحمته . « لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » . .. تمارسون الآن رياضتـكم الروحية ، زادكم الله قوة عليها وزادكم بها خيراً .. وفى أصيل النهار الصائم يكون المرء قد خلص من أثقال الماده ،التى قضت الفطرة أن تـكون غلاف هذه النفس ومقامها ، فإذا ما تهيأت للصائم فى هذا الوقت قوة إرادية ، وهدأة نفسية، استروحت روحه وآنس فى نظرته إلى الوجود تساميا مستشرفا ، إلى آفاق أبعد من حدود الحواس؛ وكانت له نشوة ، يترفع بها على الضعف والوهم ، والحاجة والحرص وإنها لحال آمل أن يكون لأكثركم منها حظ يحلو به الحديث عن : الدين والحياة .. إذ الدين وضع إلهـى مصلح للحياتين : الدنيا والآخرة .

وما تلك الأخرى إلا امتداد لهذه الدنيا ، تصلح بصلاحها فأثر الدين قوى . كما أن أثر الحياة فى الدين قوى كذلك بفعل من الحكمة التى تخضع لها الـكائنات جميعاً ماديها ومعنويها عنه السواء

« وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار ، عَالِمِ ، الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْـكَبِيرُ الْمُتَعَالْ »

والحديث عن الدين والحياة ، والتأثير والتأثر بينهما حديث يمتد فيه نفس القول ، وتتنوع فنونه ، وتلمس جوانب من وجودنا العلمي ، والعملي ، والسياسي والاقتصادي ، والجسمي والخلقي . . ونرجو أن تتسع هذه الأحاديث عن تلك المشكلات الهامة ، والجوانب الخطيرة ، للفتات عامة ، ولمحات شاملة . . تلقونها بأفق سمح ، ونظرة بارئة من الضغن والعصبية .

باعقولا مفكرة :

كل ما في هذا الوجود يجرى بقدر . فلا جزاف فيه ، ولا فوضى ولا صدفة ، ولا طفرة . « بَلْ هُوَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى . . وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً . . ولعل المتدين خير من يقدر ذلك ، و يسعى في الدنيا على أساسه . .

وكذلك ننظر فيما كان من أمر الدين والحياة فنرى أن قد آذن المقدور للانسانية منذ أجيال ، أن تغير ما بنفسها ، وتنظر إلى العالم نظرة فاحصة ، فكانت نهضة مضت قدما ، تعلم ونتعلم ، وتعمل . .

وكان الدين قد استقر به الناس على حال من الثبات والرسوخ ، نفرت من هذا التغيير وقاومته . . فكان أصحاب الدنيا العاملة أسبق سيرا . . وتخلف أصحاب الدين عن واجبهم في هذه المسايرة ، وكانت فجوة ،

تركت أثرها فى نظر الحياة إلى الدين . . فتراءت بينهما مشكلات وعقد ، نسأل الله لأهل الدين أن يسعفوا على حلها ؛ بما يجارى سرعة العلم والعمل اليوم . .

وإن أهل الدين فى الغرب ليجدون، فى سبيل ذلك جدا، عالما ، عاملا باعقول مفكرة :

كان دور الشرق فى النهضة ، فبدت تلك الفجوة وثارت هاتيك المشكلات ، وتقدم السابقون من أهل الدين ، يحاولون إصلاح الدين والاصلاح بالدين . . فكانت محاولات متعددة تخطىء شيئا ، وتصيب شيئا . . وتسدد آنا ، وتطيش آنا . . لكنها فى أقصى ما بلغته كانت فى جملتها أضعف وأهون ، من المحاولات ، التى بذلها ويبذلها الغربيون فى هذا السبيل ، إذ لم تؤيد بمثل ما بلغته الحركة الغربية من المشاركة العلمية ، أو الجد المناضل ، ولا كان لها مثل أفقها الفسيح ولا أساليبها العملية . . فما أحوج محاولات الشرق الإسلامى، فى ميدان الإصلاح الدينى، إلى تقويم فى مناهجها ، وأهدافها ، ووسائلها . .

وما أحقها فى ذلك كله بالنظر العميق، والتناول الوافى، والقول الجرىء ولئن لم يتسع مثل هذا المجال لمثل ذلك كله ، فانه ليتسع لغير القليل من المفيد النافع فيه تسديدا لخطوات الإصلاح الدينى، وتوثيقا لصلة ما بين الدين والحياة . . وهذا ما نحاول أطرافا منه جامعة فى هذه الأحاديث .

يا عفوك مفكرة :

ألا تلحظين معى أن دعوات الإصلاح الدينى ، تبدو عندنا يسيرة الشأن ، قريبة الغور ، تعرض الأمور عرضا بسيطا سطحيا .. فجملتها : أننا ماتأخرنا إلا لترك الدين .. وأنه بالتمسك بالدين نتقدم ونسود ، كما ساد أسلاف لنا .. و .. إلى اخر ما تعرفون مما يستطيع ترديده من يعرف ومن لايعرف، ويسهل على العامة السذج ، فى الطرقات .. فلا أهداف محدودة .. ولا خطط عملية .. ولا دراسة صحيحة لشئون الاجتماع ، فى الدين والحياة .. بل تتجه العناية إلى التوافه من زى، وسمت ، ومظهر .. كأن هذا هو كل شىء .. ولعلكم تذكرون ما أحدث قطع زر الطر بوش ، وإرخاء العذبة ، من معارك .. أما علاج امهات المشكلات فى الحياة فهو عندهم بين سهل التناول ، فإصلاح الحياة القضائية مثلا ، والتشريع لها ، وتحقيق العدل الصحيح ، أمور هينة، هى منهم على حبل الذراع ، يتكفل بها أصغر متن فقهى قديم، أو أبسط شرح ..و يتركز فى تلك الكلمة اليسيرة (الحكم بما أنزل الله) !

وإصلاح الحياة الاقتصادية أهون وأيسر .. وإصلاح الحياة الخلقية أقرب وأبسط .

وأما عقد الحياة التى ترصد لها الأمم الأموال ، وتجرد القوى ،

وتؤسس الجامعات والمعاهد . . . وتستحدث العلوم ، وتستنبط المعارف .. فما هذه كلها عندهم إلا وهم وعبث .. يستطيع أى مدع بينهم ، بسلامة نيته وطيب قلبه ، أن يلخص حلول كل تلك المشكلات الماثلة ، فى ثلاثين حرفا ، أو بضع كلمات .. مما جرت به حكمة مأثورة ، أوقولة شائعة ، أو كلمة سائرة .. ولو شاء أحدهم لوضع بحثا عما تسمونه مشكلة عويصة فى السياسة أو التربية أو غير ذلك ، دون حرج ما عليه ، ودون حاجة إلى رجوع لما قاله الباحثون فى ذلك ، بل مع السخرية والاستهزاء ، بما أفنى فيه أولئك الباحثون حياتهم .

يا عقورا مفكرة :

ينسى هؤلاء أن الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان لأنه يساير كل زمان ومكان ، لن يصلح لهذه المسايرة ، بصورة واحدة لزمان واحد ، ومكان واحد ، فكيف إذا كان هذا الزمان ، منذ مئات السنين ...

وينسى هولاء أن هذا الكون خلق دقيق ، من تقدير العزيز العليم ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وأنه بذلك مجال لدرس عظيم ، وبحث عميق ، وأن عليهم لذلك أن يجاهدوا جهاد أسلافهم فهم الدين ، وفى الاستعانة على ذلك الفهم بعلوم الأمم الأخرى ، حولهم .

وينسى هولاء أن للعالم سننا ثابتة ، ونواميس مقررة ، وأنه لا تبديل لخلق الله ، فلا يسخر هذا الكون ، إلا لمن فهم سننه وعرف نواميسه .. ثم هذه

الحياة التي يريدون إصلاحها ، قد فسدت بمخالفة هذه النواميس فاحتاجت علما وخبرة وعملا ، ووجب أن تكون عدة الاصلاح الديني درسا وعلما ومنهجا وخططا .

وفقهم الله لذلك حتى يحدثوا في الحياة أثرا .

١٩٤٦/٨/٧

الدين والحيـــاة

الصوم سمو وتسامح
يخفف اثر افتراق الاديان

— ٢ —

سلام الله عليـكم ورحمته .. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. هاهو ذا الأصيل الصائم ، الذى توفون فيه ، على نشوة روحية ، مسلمة إلى التأمل السامى ، والتفـكير المحلق، ولاسيما بعد إلف الصوم والمرانة عليه . وهآنذا أرجو منـكم فى هـذه الحال النفسية الشفافة ، إصاخة إلى الحديث عن « الدين والحياة » حديثا نقدر فيه جهاد أصحاب الإصلاح الدينى ، فى سبيل إسعاد هاتيك الحياة بالدين ؛ ونريد الآن لنرى موقف أصحاب هذا الإصلاح ، من افتراق الأديان ، واختلاف الملل .

أيتها القلوب المؤمنة :

.. تفرقت بالناس السبل فى تدينهم ، منذ أقدم عهود البشرية ، وبحـكم تعرض الدين لشئون لدنيا ، وبحـكم قوة العاطفة الدينية ، كان لهذه الفرقة أثرها ، فى بناء التاريخ ، منذ أقدم أيامه إلى الآن ؛ وربمـا إلى الغـد البعيد جدا .

وقد عانت البشرية من هذا الاختلاف ، صنوفا من العنت وألوانا من

البأساء ، سجلها التار يخ بالدماء المسفوكة ، والمهج الممزقة ، والحرم المنتهكة ، والجهود المضيعة ؛ حتى انفتح من ذلك باب لخطأ الحكم على التدين وأثره ؛ لعلنا نتحدث إلى أصحابه في فرصة اخرى ، فنردهم إلى صواب الرأى الذى يحمل الناس وزر هذه الشرور ، ولا يحمل الدين ولا التدين شيئا منها .. وفى كل حال قد خلف هذا الافتراق الدينى، والشقاق الاعتقادى ، ضروبا من الحقد ، وألوانا من البغضاء المفسدة للقلوب، المهلكة للنفوس، المبددة للقوى ، الصادعة لبناء الجماعات ، جعلت مداواتها ؛ أو التخفيف من آثارها ، عملا مشكورا، محمود الأثر فى حياة الأمم ، وتماسك بنائها ، فى معترك الحياة ، وبهذه المناسبة نحب أن نعرف شيئا مجملا ، من هدى القرآن ، فى هذه الناحية ، وكيف نظر إلى اختلاف الأديان ، وحال المخالفين ! وكيف دبر للوقاية من شرور هذا الاختلاف ، وإضراره بالجماعة البشرية .

أيتها القلوب المؤمنة :

أول ما نوفى عليه ، من هدى القرآن ، فى هذا السبيل . تعليله نشأة هذا الاختلاف إذ يقول : «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ . فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»

فجعل هذا الاختلاف من بغى الناس ، وهو ما تشهد بصحته النواميس الاجتماعية والنفسية ، وتعفى الدين نفسه والتدين ، من تبعته وآثامه .

وتتابع التماس الهدى القرآنى ، فى شأن هذا الاختلاف ـ فتراه منهما تسكن أسباب ذلك التفرق ونشأته — يقرر تورط الناس فيه ، إذ يقول : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ؛ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . .

وفى هذه الآية اتجاهات عالمية سامية ، لا نستطيع أكثر من الإشارة إلى بعضها هنا : إذ نحس هـذا الهدى القرآنى الجليل الحكيم ؛ الذى يقدر الواقعية فى خشونتها وقسوتها ، ثم هو مع ذلك ، يغرى بالمثالية النبيلة ، البعيدة المرمى ، تاركا الإنسانية ، تتعلق من تلك المثالية بما تستطيع أن تصل إليه وتجد فى سبيل تحقيقه . .

نعم، نجد ذلك جليا ، فى أنه يقرر استمرار الناس، فى هذا الخلاف ، الذى ورطهم فيه بغيهم، مع تعقيبه على ذلك توا ، بالاستثناء ؛ اذ يقول « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » فتلك الرحمة المنقذة من الاختلاف . هى الأفق الإلهى المنير ، الذى تضىء منه تلك المثالية البارئة النقية الطاهرة القلب ، مترفعة على بغضاء الافتراق، وحقد الاختلاف ، وشقاق الفرقة ، وما فى ذلك كله ، من مآثم ومهالك .

ثم إلى هذه المثالية ، يوالى القرآن ، دفع الإنسانية ، إلى التعلق بهما محرضا على النفور من الاختلاف ، وكراهية الافتراق بمثل قوله : بضع مرات ، لامرة ولامرتين : لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ . . فى سياقات ومناسبات تصفى على المعنى قوة من الفن القولى ، جديرة بالقول المفرد . . وفى مثل قوله « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ، وَكَانُوا شِيَعاً ، لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » وقوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ، مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ـ فياله من هدى نبيل سماوى الشمائل ، يسمو بالإنسانية إلى أرقى ماتصبوا إليه من آفاق .

أيتها العقول المفكرة : لقد كان أصحاب الإصلاح الدينى الإسلامى أحق الناس ، بمقاومة هذه الفرقة ، وإراحة الإنسانية من شرهذا الاختلاف ، متطلعين فى ذلك إلى المثالية القرآنية الرفيعة ، التى تساير تقدم الدنيا ، ورقى الإنسان . فيكونون بذلك ، آية عصريه ، للهدى القرآنى ، والسماحة الإسلامية ؛ ولكن بشرية الناس ، تلصقهم بالأرض كثيرا ، وتسد عليهم الطريق إلى السماء ؛ وإنى بحق الصراحة الإسلامية ، لأقول : إن القوم لم يقوموا فى ذلك ، بما يرجى منهم ولهم ، بل لقد شق عليهم أحيانا ، أن يجعلوا الإصلاح الدينى ؛ مثالى الأفق ، محاربا للفرقة ، مطهرا للقلوب من

البغضاء ؛ إن لم نقل إنهم جعلوه ، سببا لنماء مثل هذه الشرور ؛ حتى سمعنا بعض الأغرار فى هذا العصر ، يهتفون بمثل قولهم «دين واحد» مرددين فى ذلك بعض صرخات سياسية حمقاء ، لا داعين إلى وحـدة ، مترفعة على الافتراق ، مؤمنة بأن الحقيقة الإلهية السماوية ، واحدة الجوهر ، واحدة الهدف ، واحدة المبادىء الـكبرى والأسس الأصيلة ، وبحسبى هنا هذه الإشـارة الرفيقة ، آملا لهم ، أن يجعلوا الإصلاح خليقا بأكرم الرغبات المثالية فى هذا العصر ، الذى يتطلع إلى مثل تلك الآمال الـكريمة ، والاسلام معين على ذلك كله ، وفقهم الله لخيره .

١٩٤٦/٨/٢١

رمضان . تدريب

حس القرآن بالصوم ..
وتفاصيل أحكامه تجعله تدريبا

سلاما..سلاما، «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» .. فى رمضان بجوه النفسى ، ولفتته الروحى تحلو مدارسة القرآن ، وكذلك كان يفعل الرسول عليه السلام .

وفى القرآن كتاب العربية الأعظم روائع، من حسن البيان ، وطرائف من جمال النظم ، تومىء إلى آفاق بعيدة سامية ، من المعانى ، تتفتح على عوالم من الأهداف كريمة فاتنة .. وإن من البيان لسحرا .

وكذلك يجمل بى أن أجاذبكم أطرافا من هذه المدارسة الفنية الباهرة للقرآن .. وأنسبها ما يكون من هذه اللفتات إلى آيات الصوم ، التى يعرض لها القرآن، مرة واحدة ، فى سورة البقرة ؛ وهى الآيات التى ما أشك أنها تليت عليكم مرارا ، منذ حل رمضان .. وعرضت عليكم فى مناسبات متعددة وهى آيات : —

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه ، فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون »

أصحاب الحس الفنى : ترد هذه الآيات فى السورة ، بعد آيات عن القصاص فى القتلى ، والوصية ممن حضره الموت ، وقد صدرت هذه الآيات بعبارة « كتب عليكم ».. يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ..والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم

كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية » وبعدهما آية الصوم مصدرة بالعبارة نفسها يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام

ويقولون فى المناسبة بين هذه الآيات المتتالية : إنه اخبر

بكتب القصاص، وهو إتلاف النفوس ، وهو من أشق التكاليف .. ثم أخبر بكتب الوصية عند حضور الموت،وهى إخراج المال الذى هو عديل الروح .. ثم انتقل إلى كتب الصيام ؛ وهو منهك للبدن ، مضعف له ، مانع قاطع ما ألفه الإنسان ، فابتدأ بالأشق ؛ ثم بالأشق بعده ثم بالشاق[1]

هذا فى المناسبة بين آيات الصوم وما قبلها . . وأما فى التعبير ونظم الآيات نفسها فيلحظون : أنه فى هذه الأمور الشاقة عبر بلفظ « كتب » دون ذكر الكاتب، وهو الله تعالى، لأنها مشاق فناسب ألا تنسب إلى الله تعالى ؛ على حين أنه يعلن هذه النسبة إلى الله ، فى الكتابة ، إذا كان المكتوب رحمة ولطفا ، فى مثل قوله : كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .. كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي[2] .

وكذلك يرق الحس ويلطف .. ونمضى فى تأمل صياغة آيات الصيام فنجد : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » ، ويقولون عن هذا التشبيه « كما كتب » : إنه يسهل هذه العبادة، لأن الأمور الشاقة إذا عممت خفت[2] .

ثم نرى بعد أنه يذكر أن الصوم « أياما معدودات» فيقولون فى وجه

(١و٢) أبو حيان ــ البحر المحيط ج ٢ ص ٢٨

ذلك : إنه يشـير بذلك إلى القلة ، كما فى قوله « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » ؛ ففى هـذا الوصف تسهيل على المـكلف ؛ لأنها ليست كل الأيام ، ولا أكثر الأيام(١).

أصحاب الدور الأولى : فى هذا النسج القرآنى الموجز المعجز يعرض مرتين فى آيتين متتابعتين .للترخيص بالفطر ، لمن يشق عليهم الصوم ؛ فَمَنْ كانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر.. فيشير إلى الشعور المستمر بمشقة الصوم ، ويدل على هذا إباحته تأخيره لمن يشق عليه الصوم ، كالمرضى والمسافرين ، وأنهم يؤخرونه إلى زمن الرفاهة والصحة .. وتـكرار ذكر هذا الترخيص أكثر دلالة على اللطف ؛ . .

وفى الآيات بهذا النظم إشارة إلى مايذكرونه من الحديث عن تطور الصوم ، فى الإسلام ، وأنه كان أولا تخييراً ، فـكان لمن أراد من القادرين المطيقين أن يصوم ، أو أن يفدى بطعام ؛ ثم صار إجبارياً فى رمضان ، فأعاد معه ذكر هذا الترخيص لغير القادرين ، لئلا يتوهم أحد أن صيرورته إجبارياً تجعل

---

(١) أبو حيان ٢ : ٣٠ ، والنيسابورى ٢ : ١٧١ هامش الطبرى

الترخيص بفطر غير القادرين ملغى ، وغير موجود ؛ أو تجعل هذا الترخيص غير محمود ،فكرر لإزالة هذا التوهم كله[1] .

ويا ما أرق ما يعقب هذا التكرار للترخيص من قوله « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .. والتعبير عن هذه الإرادة بالمضارع « يريد » والمضارع للحال ، فهو تعبير يحضر الصورة ، ويدل على ما هو كأن لا ينقطع ، فالرحيم اللطيف دائماً، يريد اليسر دائماً ، ولا يريد العسر أبداً ..

ولقد أفهمت إرادة اليسر أنه لا يريد العسر ولكنه لم يكتف بهذا المفهوم من العبارة ، للعموم بل ذكر بصريح اللفظ أنه لا يريد العسر، تأكيداً أو تثبيتا .. ويهيء ذلك كله للعموم فى جميع الأحوال ،وأنه يريد يسرها جميعا ، ولا يريد عسرها .. وتلك هى الحنيفية السمحة السهلة ، كما وصفها الرسول عليه السلام فقال : إن خير دينكم أيسره ، إن خير دينكم أيسره . .

وهى روح يحسها جليا من القرآن أصحاب هذه العربية ، حين خوطبوا بها ،فى مثل آية: يُرِيدُ اللهَ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» فقال قوم من علماء الصحابة : إنه يجب على المريض والمسافر أن يفطرا . . بل يقول الفقهاء بعدهم : إن من رغب عن السنة ،ورأى أن الفطر مكروه إليه ، فهذا يتعين عليه الإفطار ، ويحرم عليه الصيام ، والحالة هذه ؛ لما جاء : من لم يقبل

---

(١) الأستاذ الإمام ـ تفسير المنار ٢ : ١٧٤ .

رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفه .[1] كما نرى منهم من يلحق الحبلى والمرضع بالمسن العاجز من الصوم فيقول : إنهما تفطران بلا فدية ولا قضاء[2]

أيها المؤمنون : تلك لمحات من الحس الفنى فى النظم القرآنى وإدراك لمراميه . . وإنا لنعرف أن الكتاب قد دعا إلى دين العزة ، «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» ... وهو دين القوة . فالمؤمن القوى عنده خير من المؤمن الضعيف . . وهو مع كل أولئك دين السلام العالمى الذى يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً »..والحكمة تقتضى الملاءمة بين ذلك كله ، ووضع كل شىء فى موضعه ؛ وعلى هديه هذا ننظر بعد الذى أحسسناه ، من الشعور القرآنى المرهف لنرى : أن هذا الصوم فى مشقته ، وفى جعله موسماً سنوياً لشهر ، يعد ضرباً من التدريب العملى والنفسى . يتطلبه دين القوة من المؤمنين به ، ليعدهم للحياة العزيزة ، فى دنيا يذهب فيها الزبد جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض . .

وظواهر التدريب بادية فى هذا الصوم الشاق فالصائم يترك به أسلوبه العادى فى الحياة سائر السنة ويأخذ نفسه بحرمان عام طول نهاره، وطرفاً

(١) ابن كثير ١ : ٤١١ (٢) ابن كثير ١ : ٤٠٦ .

من الليل أيضاً، وهو يرى رغباته ، ويستطيع أن ينالها ، لا يمنعها عنه إلا ضبط نفسه ، بإيمان يلزمه فى السر مالا يلزمه به أحد يراه أو يرقبه ؛ فهو يروض إيمانه أول مايروض، ثم يروض بعد ذلك مقاومته المادية فى ترك « كيوفه » المتحكمة ، وقهر شهواته المسيطرة ، ليكون له بذلك من الجد والصلابة ما يمارس به الحياة الجادة القوية الممتزة

وهذا التدريب من دين القوة والعزة قد صحبه مايكون مع التدريب عادة ، من صلاحية المتدربين ، وأن تكون لهم صحة مواتية . . بعد أن يكونوا فى سن مناسبة، هى سن التكايف الدينى .

وكذلك ترون أن هذا التدريب قد أعفى منه الصغار ، الذين لم يصلب عودهم بعد، أى قبل سن البلوغ . . كما أعفى الكبار الذين جاوزوا سن الاحتمال لنشاط هذا التدريب

وأعفى كذلك منه الرجال الذين يحول ضعفهم الصحى ، دون الاحتمال لما لمسنا من الحس القرآنى الواضح بمشقته . ثم أعفى من ذلك الرجال الذين يواجهون فى الحياة مشقات مدربة بطبيعتها كالأعمال الحربية للمجاهدين المحاربين فعلا ، أو المدربة بقسوتها كالأعمال العنيفة فى الحياة العامة، لأن لهم فيها ذاتها تدريباً متصلا .

وعد من ذلك السفر لأنه لا يهيىء — غالباً — الراحة التى تعين على الاحتمال . . ولا يريد الله بكم العسر ،

وأعفى من هذا التدريب النساء حين يقمن بواجب الأمومة الأكبر من حبل أو إرضاع. وسمعت من يعفيهم من ذلك إعفاء تاماً، دون قضاء ولا فداء.

* * *

وبعد الذى وجدنا من حس القرآن الفنى للصوم: وبعدما وصفنا من أن هذا الصوم تدريب اجتماعى، نفسى، سنوى للمؤمنين بدين القوة والعزة، والسلام، نتحدث إلى صنوف من الناس ما بين مفطرين، وصائمين.. فمن المفطرين صنف يتحدث عن قسوة هذا الصوم وعنفه، ويذكر من أمر الزمان والمكان وتغيرهما ماتعرفه إن كنت قد سمعته، أولا خير لك فى معرفته إن كنت لم تسمعه.. فهو جرىء معربد. ونقول لهذا الصنف:

أولا: إن للقرآن من الحس بوقع الصوم مالو كان لكم بعضه لكنتم شيئاً بين الأمم ذات المكانة الفنيه.. ثم نقول لهم:

ثانيا: إن هذا الصوم تدريب تجنيدى، يقوم بمثله فى الأمم حولكم من هم أشد الناس رفاهية.. ماداموا قادرين عليه.. كما قرر القرآن فيما سمعنا.

وهناك صنف من المفطرين، لم ينكروا ولم يقولوا شيئا، لكنهم

شعروا ، بصفة عامة ، أن الصوم صعب ، مع أنه هام فى الدين ؛ فتظاهروا بالصوم ، كذبا وزورا ؛ وخسروا الدين والخلق جميعا .. ولو أدركوا تأكيد الدين لرخصته ، وحس القرآن نحو الصوم لصاموا أو أفطروا ، على أساس صحيح ، وفى مصالتة شجاعة ، فسلم لهم الدين والخلق معا .

ثم إننا نتحدث مع ذلك إلى صائمين ؛ منهم صنف يحسب الأمر جوعا ، لا أكثر .. فهم يجوعون الساعات المقررة ، ليرسلوا لشهوتهم بعدها العنان ؛ وكأنما جاعوا ليثيروا شهوة أعنف مما تثور الشهوة فى الفطر ! !

ونقول لهؤلاء : لو أدركتم شعور القرآن نحو الجوع لأدركتم أنه لا يمكن أن يراد لذاته ، وأنه مع حالهم هذه بعد الإفطار لا تتحقق عبادة ، ولا تكون فائدة دينية ، أو عملية فى صوم .. وإنما هو تجويع لإثارة شهوة ليس وراءها إلا التخمة القاتلة ؛ وما كان الله ليتعبد الناس بما يقتلهم .

ومن الصائمين صنف غير هؤلاء .. يحسبون هذا الجوع بلا وعى ولا رشد هو العبادة ، فيأخذون الأولاد قبل سن التكليف بهذا التجويع ، ولا أسميه صوما أبدا ، فينتهى جوع هؤلاء الذين لم يكلفوا بصوم إلى مضار نفسية ، بشعة ، تفسد أخلاقهم ، إذ يسلمهم ذلك الإكراه القاسى ، إلى التفنن فى الاحتيال والكذب ، ويغريهم بالمراءاة ، ويروضهم على الغش والنفاق . إلى جانب

مايركز في نفوسهم من نفور وكراهية لهذه الفريضة .

فقدروا حس القرآن ، الذى تمثلتموه مما سمعتم ، عن مشقة الصوم ، لتدركوا أن هذه المشقة لاتراد لذاتها أبدا ؛ وإنما هى تدريب للقادرين الواعين المكلفين ، المستفيدين منها ـ فإما صوم ترجى معه التقوى .. فهو يصلح النفوس .. ولايفسد الأجسام . . وإما لا . . يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ

— مارس ١٩٥٨ —

تدريب فاسد .. مع وفرة المدربين

.. « كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَتَنْهونَ عَنْ المُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ

صارت أمتكم هذه خير الأمم، بأمرها بالمعروف ، ونهيها عن المنكر ، وذكر ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى بيان وجه خيريتها ، قبل ذكر إيمانها بالله .. كما لعن الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، على لسان الأنبياء منذ القدم . وإلى جانب هدى القرآن فى ذلك الهدى النبوى ، إذ يقرر « أن الدين النصيحة » .. الدين كله هو النصيحة .

وتغيير المنكر باليد واجب ؛ ثم تغييره باللسان، ثم تغييره بالقلب . . وهذا أضعف الايمان ، وعلى هذا الهدى النبيل أفتى العلماء منذ بضعة قرون فى بلدنا هذا : أن المخاطرة بالنفوس فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مشروعة ، وأن من قال إن التغرير بالنفوس لا يجوز فى هذا ؛ فقد بعد عن الحق ونأى عن الصواب [1]

---

(١) السبكى — طبقات الشافعية ٥ : ٩١ . والفتوى المذكورة لعز الدين بن عبد السلام ، عالم مصر والشام .

وأستحضر هذا كله ، حين أحدثكم عن الصوم فى حياتنا ، حديثا يليق أن يوجه لخير أمة ، أخرجت للناس ، من أحد أفراد هذه الأمة

وقد سبق حديثى إليكم عن أن الصوم تدريب ، ولمسنا من حس القرآن الفنى، الدقيق العميق ، أن هذا الصوم مشقة ؛ وأدركنا ذلك من نظم آيات الصوم فيه : فى مفرداتها ، وتركيبها ،وسياقها : واطمأننا إلى معنى التدريب التجنيدى للصوم ، فى دين يدعو للعزة ، ويعمل للقوة ، حتى يتحقق دخول المومنين كافة فى السلم ..

وهذا الصنف من التدريب تقصد إليه الأمم ،وتجدده كل سنة ، فترة معينة ،طوال السن القادرة على أعبائه ورأينا الشبه الكامل ، بين نظام الصوم ونظام هذا التدريب ، من اعفاء غير القادرين ، والقائمين بالأعمال المجهدة . وإذاما اكتمل هذا المعنى الحيوى فى الصوم كان عملا مفيدا، فاسمحوا لى أن أسألكم عن حال هذا الصوم فى حياتنا : أحقا هو هذا التدريب ، الذى حدث المتحدثون الواعون عن حكمته ، فى قوة الإيمان وضبط النفس ، وتقوية الإرادة ، وإحياء الشعور الإنسانى بواجبنا ، وبحقوق من حولنا ، ومايتصل بذلك من المعانى التى تحققها هذه الرياضة ؟

وهل صحيح أننا نصوم صوما تدريبيا ، يحقق هذه النتائج ، أو يحقق شيئا منها ، أو يحقيق شيئا يشبهها أبعد الشبه ؟

إنى لأعرف ، وإنكم لتعرفون ، كيف يتم هذا الصوم فى حياتنا ..

فإننا لنتلقى رمضان بالجشع النهم ، الذى يتخذ جوع الصوم - كما كررت ذلك - وسيلة لإهاجة شهوة البطن ، للتفنن فى إشباعها ..

ألسنا نستعد للصوم بخزين رمضان، الذى تمثل كثرته وإسرافه ، تلك الفكاهة الشعبية ، عن الزوجة التى زحم زوجها البيت بحاجة رمضان ، حتى ضاقت بها ، وضجرت منها ، فاصدقت أن سمعت الناس ينادون رجلا اسمه رمضان ، حتى نادته وطلبت منه أن يأخذ حاجته ، التى زحمت البيت .. وأعطته جميع خزين رمضان .

وخزين رمضان لا يكون فردياً عادياً فقط ، يهتم به فرد أو أفراد مسرفون بل يكون رسميا ، نظاميا ، حكوميا ، فالدولة تعد لكم ثلاجات اللحوم ومخازن الدقيق الفاخر ، وتوفد البعثات التجارية لشراء المكسرات ، بل تسخر قوى الأمن لحل مشكلات التوزيع ، حين تستدعون شرطة النجدة ، لتحصلوا على المميش .. ثم هى تزيد مقرراتكم من التموين نصفاً جديدا ، فى رمضان . ويتولاكم الذعر إذا لم تجدوا من المشهيات والملهيات شيئا تافها ، فالصحف تكتب بالخط العريض ، على أعمدة : لا تخف يختفى قمر الدين يومين فقط ، ثم يملأ السوق !!

فهل رأيتم ، أيها السادة الواعون ، حمية دينية تكون فرصة لإثارة النهم الخطر إلى حد تتدخل فيه أجهزة الدولة الرسمية المختلفة ، ووسائل الدعاية العملية .!

وهل سمعتم أن تدريبا رياضيا أو عسكريا ، يجعل نشاط النهار ويجعل طوابير التدريب نفسها سببا للاندفاع المتهور فى متع الليل ولذائذه !! لأن التدريب يقوى الجسم ، ويثير الحيوية ! أفكيف يكون ذلك فى عبادة شرعها دين يقول كتابه: « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفوا» . ويقول رسوله عليه السلام: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع . وإذا أكلنا لا نشبع .. وغير ذلك مما يقول للعلم . ! أما إنكم يامستمعى الصرحاء ، لو رعيتم معى حرمة النصيحة فى دينكم لسمحتم لى أن أقول بعبارة واضحة :

إن صومكم هذا تخريب لا تدريب . . وإن صومكم بحاله هذه ، وغيرها من التصرفات السيئة ، والأفهام الخاطئة ليسىء إلى العاطفة الدينية نفسها قبل كل شىء ، لأنه يطيل الألسنة ، على التدين فى وقت تغمر الدنيا فيه موجة إلحاد حاكمة مسيطرة ، وإن صومكم هذا ، وفهمكم للصوم ليسىء إلى التربية الخلقية ، فعدم شعوركم بحس القرآن نفسه نحو الصوم ، ونظر الدين ذاته لأسباب الإعفاء منه يدفع صغارا وكبارا إلى كذب عملى ، ونفاق فعلى طويل .

وإن صومكم هذا وفهمكم للصوم ليسىء إلى الصحة القومية إساءات كبيرة بإيذاء المعدة التى هى بيت الداء .

ثم إن صومكم هذا ليسىء إلى حياتكم الاقتصادية والعملية ، فيجعل الصوم سببا رسميا لتقليل العمل ، واعتذارا فعليا للاهمال والخطأ ، وسوء المعاملة فى مختلف الميادين

وإن الصوم في حياتنا ليس في شيء من التدريب ، بل هو في كثير وكثير من التخريب ـ كما قلت ـ وما أحوج هذه الحال السيئة ، التي يتجاهلها النفاق الاجتماعي ، ويخفيها الضعف الخلقي ، ما أحوجها إلى إصلاح ، له من القوة ما يعالج هذا كله ، ويدفع هذا كله ، ويجعل الصوم وسيلة إصلاحية صحية ، اجتماعية ، وخلقية ، واقتصادية ، كما أريد من الصوم ، وكما أريد بالصوم .

* * *

واسمحوا لي ببقية من شجاعتكم ، لأتابع الصراحة المؤمنة ، في عرض أصول الإصلاح لهذا الصوم ، الذي هو ـ فيما أدركنا ـ تدريب ، بكل معنى هذه الكلمة .

إن التدريب ، في أي صورة من صوره يحتاج إلى مدربين ، كصف الضباط في التدريب العسكري .. وصف الضباط في الميدان الديني ـ بصفة واضحة ـ صف طويل جدا .. فمع ما نعرفه جميعا من أن الإسلام ليس له طبقة متميزة من رجال الدين فإن في الحياة فعلا آلافا أو ملايين ينتسبون إلى الدين ، و يرزقون باسم الدين ، و يحترفون شعائر الدين ، و يمارسون تعليم الدين .. وما أكثر ما يستطيع هؤلاء أن ينعلوا الدين كما ناديت كثيرا

وفي هذا الصف أئمة المساجد ، ومقيمو الشعائر فيها .. ثم فيه الوعاظ من غير رجال المساجد .. وفيه بعد كل أولئك آلاف الطلاب بالمعاهد

الدينية ، فى درجات التعليم المختلفة . .

وينبغى أن يكون لهؤلاء الطلاب نشاط حيوى ، كما لغيرهم من الطلاب المدنيين ، فى المدارس ، والجامعات ، والمعاهد ونشاطهم فى الميدان الدينى أنسب لهم ، وأليق من نشاطهم الذى يظهرونه ، فى المصارعة ، والتمثيل ، والموسيقى . . لأنهم فى هذا النشاط الدينى غير مزاحمين ، على حين هم غرباء فى تلك الميادين الأخرى من النشاط اللاهى .

وإلى جانب هؤلاء ، فى صف ضباط التدريب الدينى أيضا ، الجمعيات الدينية ، ولاسيما الكبرى منها ، ذات الفروع والشعب . . وعلى رأس الصف هذا الذى يسمى المؤتمر الإسلامى ، الذى يتحدث عن الحياة الاسلامية ، فى غير مصر ، فأولى له ألا ينسى مصر .

هؤلاء جميعاً يكونون مدربين . فى التدريب الدينى . لو نظم نشاطهم ، ليجعلوا الصوم تدريباً قوى الأثر فى حياتنا . .

وذلك بأن يتغلغلوا جميعا فى الحياة ، ويغشوا بيئاتها المختلفة ، ويخالطوا الناس ، ويداخلوهم ، كما يفعل رجال الأديان الأخرى أمام أعيننا ، فى دأب وجد . . فلا تكتفى هذه الصفوف من المدربين عندنا بالمنبر ، أو الميكرفون فى ساحة المولد . . وسبيلهم إلى هذا الاتصال النافع المخالط هو تكوين الهيئات الشعبية ، من أصحاب النفوذ الدينى الحى ، وأصحاب النفوذ الاجتماعى فى قومهم ، يستعينون بهم ويعينونهم على ملابسة الناس ، والاندماج فيهم ، عند المناسبات المختلفة ،

التى للدين والتدين فيها مجاله ، لأنها فرص مباشرة مواتية ، لتصحيح فهم الناس للدين . وحكمه ، وإزاحة أسباب النفاق الدينى والاجتماعى ، وإزالة الخوف ـ بلا أساس ـ من أوهام تقليدية ، وإراحة النفوس الحائرة من مشكلات نفسية ، أو اعتقادية ، أو عملية . . ويزيد نفاذهم فى هذا المجال كلما أحسنوا التعبير المرن اللبق، الحى ، عن المعانى الدينية الحيوية ، فيكون لهم من العطف على الناس، والاتصال بأرواحهم، والقرب من قلوبهم ما يحقق التوجيه القرآنى للرسول عليه السلام حين وصفه بقوله: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيم، وحين قال له «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ »

وبهذه اللباقة يقربون إليهم رخص الدين ، ويكشفون لهم يسره ، ويحطمون أوهامهم حوله، فيغروهم به، وينفرونهم من التصرفات التى تضيع بها حكمة التهذيب الدينى ، كهذا النهم والجشع، فى شهر الصوم ، فيصلحون أمرهم ويعفون الدولة من أعباء تحتملها فى هذا الشأن ،خشية فهم هؤلاء المخطئين للحياة ،المقدرين لها ببطونهم .

وإن هؤلاء المدربين الكثيرين ممن عددت ليستطيعون الإصلاح الإيجابى العامل لهذا الصوم ، ويحققون به خيراً كثيراً، لو نظموا مثلا فدية المفطرين ،

وجمعوها ثم نظموا ما هو من واديها ، كالكفارات ، وصدقة الفطر ، التي يختم بها شهر الصوم ، ونفذوا من ذلك كله إلى عواطف الخير في الناس ، فجعلوا شهر الصوم موسم خير ، وفرصة معونة — تكون النفوس فيها أكثر سخاء . .
فأى شيء يكون هذا كله؟..وأى إصلاح اجتماعى يتحقق به..وأى جدوى تكتسب بمثل هذا النشاط العامل الفعال ؟

لقد ناديت منذ بضعة عشر عاما ، من هذه الإذاعة ، بفكرة إصلاح الحياة بالدين ، عن طريق جعل مواسمه ومراسمه فرصة إيجابية للاصلاح الاجتماعى ، ووصفت من ذلك خططاً وخططاً . ومهما يظن أن ذلك يذهب مع الريح فإنى واثق أنه لا بد يوما متحقق ، ومنفذ . . ولا يأس من روح الله ، ولا خوف من إعلان الحق ، والمواجهة به ، فقد صح القول بأن هذا النصح واجب مهما تكن المكاره فيه .

ابريل ١٩٥٨

عيد الفطر

ف التدين الموجــه فرص كبرى للنشاط القيم فى تعييدنا

عادتــكم الأعياد فى أمن وطمأنينة ، وحرية وكرامة ، وعزة ومنعة وبعد .. فياترى لديــكم من الفراغ والنشاط ماتجلسون معه لاستماع حديث ، وأنتم فى مشغلة عيد .. أم تتركون الاستماع إلى الإذاعة لتلك الأحاديث ؟.. إنى أعرف أن كثيرا منكم يغيرون المحطة عند مايحين وقت حديث ، أو ينهون ضجيج هذا الراديو .. وأحسب أن الإذاعة نفسها ينبغى لها أن تواجه هذه الحقيقة ، وتبحث عن أسبابها ، فى تتبع دقيق ، فتحسن بذلك إلى نفسها ، وإلى الناس

. وتلك خواطر راودتنى ، وأنا أفــكر فى هذا الحديث فتمنيت أن يكون هذا الحديث الذى تصر الإذاعة على إرساله يوم عيد الفطر حديثاً خفيفاً ، سامراً ، قريباً من الأنفس فى ذلك اليوم . .

ولــكن ماذا أصنع وأنا أميل أشدالميل إلىأن تــكون تلك الأحاديث مجالا لتوجيهات عملية ، إيجابية ، بجعل للحياة الدينية فى وجودنا ونهضتنا أثراً جديراً بها ، متناسباً مع مكانتها وقدرتها .. ثم أنا بعد ، لست من أصحاب الأسماء المسلية ، وذوى الطرف المؤنسة ، والفــكاهات المرفهة .. فمن تابع الاستماع لهذا الحديث فليغفرلى إن تحدثت يوم العيد عن نشاطنا فيه ، وما يرجى لهذا النشاط ، من سداد ورشاد ·

دعونى أتحدث إليكم عن عيد الفطر متأثراً بالأصداء التى تتردد فى أجواء حياتنا اليوم ، ويردد الهتاف بها ، فإنا نسمع الكثير من القول ، فى الاقتصاد الموجه ، من أصحاب المال، وأقطاب النشاط المادى .. يريدون بذلك أن يكون نشاط أصحاب الأموال والأعمال متجها إلى إفادة الحياة الاقتصادية العامة.

وتنتشر دعوة التوجيه هذه ، حتى نسمع صداها ، فى الميدان الفنى والأدبى ، بما يذكرون من الادب الهادف ، أو الموجه أيضاً .. ودون أن نخوض فى أصول المذاهب السياسية أو الاجتماعية التى ترسل هذه الشارات والهتافات .. ودون أن ندخل كذلك فى الخلاف حول إمكان توجيه الفن والأدب ، أو عدم إمكان توجيههما . . . دون شىء من هذا كله نشعر أن جملة الفكرة فى التوجيه والمطالبة ، هى : الحرص على خير الجماعة ، وتنسيق شئونها تنسيقا يمنع التدافع ،والتكرار والتبدد ..وهى غاية تدفعنا إلى سؤال من هذا الأفق هو : هلا تحتاج الحياة إلى التدين الموجه ؟

أو لعل الأولى أن يكون السؤال : هلا يبدو أن النشاط الدينى أحق بأن يكون موجهاً ؟ وأقرب إلى أن يكون موجهاً ؟

فما الرأى فى الإجابة عن هذا السؤال ، فى أى صورة يوجه بها ؟

أحسب أنكم فى هذه المناسبة ترون ، أن الشعور بالوحدة الاجتماعية يبدو فى الإسلام قويا ، بل عنيف القوة ، حين يذكر أن : مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا

فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وإن نظاما هذه نظرته إلى الرابطة الاجتماعية بين أفراده ، لجدير كل الجدارة بأن يكون مايثيره من النشاط الاجتماعى موجها أو هادفا ، ينسقه التوجيه ، وينتهى بإهدافه إلى خير الجماعة ...

ولو مضيت إلى أبعد من ذلك ، فى النظر إلى طبيعة التدين وجوهره ، وأنه وحى يوحى ، وأمر يتلقى ، ويقيد برسم لقدرتم أن طبيعة النشاط الدينى تقتضى التوجيه ، وأن رسالته تتحقق على وجهها ، إذا ما تهيأ لها هذا التوجيه الصالح البصير .

وإذا أجزتم لى أن أتحدث إليكم حديثاً موجهاً فدعونى أعرض معكم نشاطنا فى عيدنا هذا ، ذاكرين وإياكم ما يعوزها من توجيه خبير وإهداف رشيد .

ولاأشك أنكم شعرتم منذ أيام ، بما يزحم الشوارع والطرقات من صاحبات على الرءوس ، غادية ورائحة إلى الأفران ، بما فيها من نواعم الكعك والغريبة وقد أطال القائلون القول ، فى هذا الكعك وغريبته . من الناحية الصحية ، ومن الناحية الاقتصادية . ومن الناحية الاجتماعية ، فما أطمع بعدها فى أن أشغلكم بشىء من التوجيه إلى تلافى شىء من ذلك ، بتأثير دينى ، أو اعتماد على تدين موجه ، لأن ذلك مما لا يبدو سهلا ، من الناحية العملية ، حتى أعنى بالحديث عنه .. كلا .. إنما ذكرت زيطة الكعك لأنها تكون فى هذه الفترة التى يوجهنا الدين فيها إلى عمل إنسانى اجتماعى نختم به

الصوم ؛ وهو إخراج صدقة الفطر ، التى يقع عادة أن تقدم فى أواخر رمضان ، فإذا بنا لا نسمع ولا نرى شيئا عن هذا النشاط الخير ، يساوى واحدا فى الألف ، أو واحدا فى الآلاف ، مما نسمع ونرى ، عن كعك العيد ، وما يتصل به ، وما يبذل فيه ، وما ينشأ عنه .

فهلا يجب أن يكون الواقع الدينى ، أو التدين الموجه عاملا فعالا فى تنشيط هذا الخير المعطل ؟ بالتدبير لتنفيذه ، والاستفادة منه ، فى حياة النـــاس ، استفادة تصحح وتصلح بعض أخطاء النشاط ، فى الـكعك ، وفصيلته من اللقم الدسمة ، المسرفة ، المجهدة للجيوب والبطون !! .

هذه واحدة أسرفت ، وتلك واحدة تعطلت ، وليستا كل نشاط عيد الفطر عندنا ، بل لنا فيه من النشاط ما تعرفونه ، إذ يعتبر هذا العيد عيد الخلاء « الخلق » ، مقابلا لعيد الأضحى ، عيد المرأ « المرق » .. ففى هذا العيد يكون الاحتفال بالـكسوات والملابس ، حين يكون الاحتفال فى العيد الـكبير ، باللحوم والمـآكل . .

ولا تحسبوا أنى سأكون ذلك المتزمت المتشدد ، الذى ينسى ما فى ظاهرة التعييد من بهجة ومرح !! كلا فليفرح الصغار ، بما يفرحهم ، من الملابس ، واللعب ، والعيديات ، والهدايا ، والفسح ، وما يلذ لهم من أمثال ذلك . ولـكن دعونى أسأل :

أكانت هذه الأعياد فى وضعها الدينى والاجتماعى فرصا للأطفال ، ومن فى حكمهم من البسطاء والسذج ؟

أم كانت هذه الأعياد فى الدين والاجتماع لبست إلا محاولة لرد الناس جميعا إلى طفولة مرحة ، لاهية ، لاعبة ، يتخففون فيها من وقارهم الجاد ، وأعبائهم من النظام المتزمت بأن يلهوا ويلعبوا ويأكلوا ويشربوا ، فى حفلات سينمائية المظهر ، بضعة أيام ، كل عيد ، تكون أربعة أيام فى عيد الفطر ، وخمسة أيام فى عيد الأضحى ؟

لا أستطيع ، ولعلكم لا تستطيعون معى التسليم بتأصل هذه التفاهة ، فى الأعياد ، فلندع للصغار سذاجتهم ، ولنسأل : ماذا للكبار فى العيد ؟ .. فلا بد أن لهم شيئا... فليكن لهم شىء من الراحة والمرح أيضا ، ولكن ! ألا يصحب ذلك شىء من تدين موجه ، أو توجيه دينى ، يصون هذه البضعة الأيام ، عن أن تكون مرحاً محضاً ، وكسلا كاملا ؟

ألا يمكن أن يكون للعيد ، بلهوه ومرحه ، أثر أجدى على حياة مجتمعنا؟

ألا تكون مظاهر البهجة والراحة نفسها وصلة لشىء طيب ؟

ألا يكون التزاور فى العيد ، ولا تكون التهنئات بالعيد ، على الأقل ، فرصة ومناسبة طيبة لعمل طيب ، وأثر خير ؟

ألا تكون الزيارات والتهنئات مناسبة لإزالة الخصومات ، وسهولة المصالحات . . ونحن نحمد الله ــ الذى لا يحمد على مكروه سواه — من

أكثر الناس شغبا ، فى القرى والمدن على السواء ـ تحك للواحد منا على مناخيره ـ كما يقولون ـ فيثور ويغضب لكرامة موهومة ، وإهانة مزعومة .. فليقنا فى مرح العيد وبهجته ، نسكون بهذا المرح وتلك البهجة ـ طيبي القلب هادئين . نسوى نزاعاتنا ، وننسى خصوماتنا ، ونصلح ذات بيننا ، ونقرب شقة خلافنا ، ونؤلف قلوبنا .. فذلك أيسر ، وأقرب ما يجدى على حياتنا الاجتماعية أفرادا وأسرا فى تلك المناسبة الباسمة المبتهجة بالعيد .

وأبعد من ذلك ، إذا صح العزم على التدين الموّجه ، والتوجيه الدينى ، أن تكون لأعيادنا وتعييدنا معان اجتماعية حيوية ، يكون بها عيد الفطر ، بعد رمضان ، كما تكون الأعياد فى حياة الأمم : وقفة بعد مرحلة من مراحل سير الحياة .. يقف فيها ركب الإنسانية ، ليستجم ، ويستعد .. ويتبين ماذا قطع من الطريق ؟ وكيف كان سيره فيه ؟ وماذا بقى من مراحله ؟ وكيف سيقطعها ؟

وفى هذه النظرات العليا مجال ، بل مجالات لتوجيهات اجتماعية كبرى ، يحققها التدين الموجه ؛ وقد أسلفتُ قديما فى ذلك ما اسلفت ، من اصلاح اجتماعى بالدين ، فى مواسمه ومراسمه .. وحسبى هنا أن ألفت للبسائط القريبة فقط .

ولعل احتفالنا بالعيد ، فى مدينة الأموات « القرافة » لا يقل نشاطا عن احتفالنا به فى مدينة الأحياء وقريتهم .. وإن هذا الاحتفال بالموتى

لبر ووفاء ، يحمد ولا يُذم ، وإنه لاتعاظ واعتبار ، يشكر ولا ينكر ..
ولكن لنا فيه أشياء لاتخلو من نكر ولا يعدوها النقد، فإنا لنعرف ما يحمل إلى المقابر من رحمة ، وفواكه وما إليها ، فهبوا هذه الزهور المنثورة ، والخوص المفروش على شواهد القبور هو شيء من التحية بالريحان يوم التزاور . وصورة من التعبير الفني عن عاطفة أو وفاء .. هبوا هذا كذلك ، أو أكثر من ذلك ، وقولوا لي : ما هذه اللقم المكسرة ، والفواكه المبعثرة ، يتلقفها آلاف من الصغار والكبار، في تزاحم وتضارب ، وعلى صورة مهينة لا خير فيها ، مع هذا التبديد المضيع، الذي لا حرمة فيه لآخذ ، ولا فضل للمعطي .. بل قل : إنه لاجدوى فيها تذكر لمن يأخذونها فتافيت، ويبيعونها بأبخس الأثمان ، مع أن المبذول فيها من الأفراد لوجمع لبلغ آلافاً من الجنيهات . لو لم تبدد هذا التبديد الفردي السفيه، لغير مستحق و بغير فائدة . وفي غير غناء لحي ولا ميت ، لولم تبدد هكذا ، وجمعت ــ في نظام ــ لوجهت إلى ضرب من البر المنظم المجمع ، الموجه ، المركز ، ليكون منه رءوس أموال صغيرة ، أو تسلف بلافائدة ، تدفع لمن لا يجدون ذلك ، مع ما لهم من نشاط معطل ، فيمارسون بها عملا صناعيا أو تجاريا ، ليصان به ناس من التشرد والضياع ، بل تفتح بيوت وتنقذ أرواح ، وتصان أموال تبدد في الهواء .. و بوضعها المنظم المجمع هذا، تكون بحق رحمة للموتى، و بما فيها من بر حافل بالأحياء ــ وليدفع الناس مبالغ أقل مما يدفعون في الرحمة ، تحصل

منهم بصورة مغرية محببة ، تحت عنوان دينى محبب مشجع ، يكون أموالا قيمة.

وأخيرا .. كم فى المجال من مقال ، عن التدين الموجه ، والموجهين الدينيين ، والتنظيم والابتكار منهم ، ولهم .. أصارحكم بحق أنه ليس بالجديد عندى ولا المبتدأ الآن ، بل سبقت فيه اشارات ، وكلمات بل مشروعات مدروسة ،دفعت لكبرى الجمعيات الدينية ،فى جو من الحماس .. لم يلبث أن فتر .. ثم قبر المكتوب ، والمقول .. ولئن أفضى بى ذلك إلى أسف أوضجر ، فإنى لأرجو ألا يفضى إلى يأس ، واذكر دائما أن محمدا صلوات الله عليه بعد بضعة عشرة عاما من الدعوة قد انتهى به قومه إلى مؤامرة شاملة لقتله وتفريق دمه ـ وإن لنا فى رسول الله لقدوة، فى الثبات ؛ والإغراء بهذا الإصلاح ، عن طريق التدين الموجه .... وسلاما

أنشودة العيد

أنغام من الموسيقى المتوثبة تخفق لها كل قلب عرفى

الله أكبر . . الله أكبر . . لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد . . الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لا آله إلا الله . . ولا نعبد إلا أياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون

الله أكبر . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ، وَالْمَلَائِكَةُ ، وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . . وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَاتِ الأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . . فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

الله أكبر كبيرا : الله أكبر ، على كل من طغى وتجبر . . فلا مستعبد ولا مستبد ، ولا طاغية ، ولا متجبر . . .

الله أكبر . إنه لايحب المستكبرين . فلبئس مثوى المتكبرين .

تلكم من هدى القرآن ، نغمة فى أنشودة العيد ، يرددها المكبرون فتتجاوب بها الأرجاء .

لا إله الا الله.. وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَـهاً وَاحِداً، لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون.. آمَنَا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَـهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون.. وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ.. وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار.. وَلاَ يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ

فما هو إلا السيد الواحد، لا إله إلا الله وحده بكل ما فى هذا النظم من قوة.. فإن قال له فرعون: مَا عَلِمْتَ لَـكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرِى.. لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ.. قيل له: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين.

تلكم من هدى القرآن نغمة فى أنشودة العيد، يرددها المكبرون فتدوى منها الأصداء.

صدق وعده.. وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً.. إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَاد. وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْـكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله.. إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُون .

تلكم من هدى القرآن نغمة فى انشودة العيد يوقعها المكبرون فتنتعش الأرواح ، ويتجدد الرجاء .

نصر عبده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .. وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

فلا يخش المؤمنون قلة ولا يرهبوا قوة .. ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ..

تلكم من هدى القرآن نغمة فى أنشودة العيد يرددها المكبرون فتربط على القلوب ، وتثبت الأقدام .

وأعز جنده .. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .. وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

فالمؤمن وهو الجندى الذى أعزه القوى العزيز ، لن يسلم داره ، ولن يبيح ذماره ، ثم يسعى بعدها على ظهر الأرض يتنفس ويطعم ، شر

مكانا من الحيوان الأعجم .. ان تكون تلك حال عزيز معتز ، ولله العزة ولرسوله والمؤمنين .. أعز جنده . .

تلكم من هدى القرآن ، نغمة فى أنشودة العيد ، يرددها المكبرون فتثير العزة ، وتهيج الإباء ، وتحي الكبرياء .

وهزم الأحزاب وحده .. كان جنده المؤمنون حزبا واحدا ، تألبت الأحزاب المتحالفة عليهم ، من نواحى الأرض ، فهزم الله بهم الأحزاب وحده . .

إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، إِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ أُبْتُلِيَ المؤمنون وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدا . وَلمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهَ وَرَسُوله ، وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيما ، . مِنَ الْمُؤْمِنِين رِجَالٌ ، صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر وما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً .. أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرَوحٍ مِنْه .. أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمْ الْمفلحُون .

ولن تعصف الأهواء ، أوتضل الشهوات أعضاء حزب الله .. أولئك قد

ائتلفت قلوبهم ، إذ كتب فيها الإيمان ، وسمت أرواحهم ، إذ أيدت بروح من الله . . وهم حزب الله ، الذي هزم الأحزاب .. وحده

تلكم من هدى القرآن نغمة في أنشودة العيد ، يرددها المكبرون ، فتوحد القوى ، وتسكت النزعات ، وتخزى الشيطان .

باشرى .. دانيا وقاصيا .. يأبى هذا الراد إلا أن نتكلم .. وقد تكلمنا جميعا : دينيين ومدنيين وعسكريين ، حتى راح نشاطنا كلاما ؛ ولسد ما أخشى أن نحتسب الكلام جهادا والقول عملا ، .. ثم يظل الراد يأبى إلا أن نتحدث ، وهو الذي هون من شأن الحديث ، وزعزع آدابه ، فلم يلزم مستمعا اصغاء ، ولم يوجب على مدعو أن يجيب نداء ، ويريد دائما أن نتحدث ، حتى في العيد .. ولقد ألفت أن أفزع في ذلك دائما إلى هدى القرآن ، لأن هذا القرآن تاج أدبنا ، ومعجزة ديننا ، ومفزعنا وملتقانا ، مهما تفترق السبل تلتق عنده ، ومهما بعدما بيننا نقترب به ؛ وكذلك التمست في هديه الحديث عن العيد . لأنه الملاذ في توحيهنا ، والمنتهى في أصول تفكيرنا ، قد انتظم الأسس البعيدة ، واحتوى جوامع السنة ،

---

(١) الراد : من أخف ماسمى به الراديو ، وهو يردد الأصوات

وآوى إليه كل مفكر، فاطمأن منه إلى اليقين ، وارتاح فيه إلى الحق المبين .

يا شرق .. دانيا وقاصيا .. يتحدثون عن آداب العيدين ، فيما يتناولون فيذكرون التكبير ـ على أحكام لهم فيه ، والتكبير شعار اسلامى ، له دلالته النبيلة ، ووقعه الاجتماعى الرائع ، إذا ما اتخذته الجماعات شعارا ، فهو قوى الإيحاء ، بعيد التأثير .. وقد أخذ التكبير هذه الصورة الدائمة ، يجهر بها فى المساجد والطرقات ، موقعة ، منغمة ، على أفواه الجماعات المحتفلة به فى وقار الشيوخ ، وسمتهم الرزين الحزين حينا .. وفى حميا الشباب ووقدته حينا ، واتسقت على الزمن عباراته ، ذلك الاتساق . فمطلعها ذلك الشعار الجليل من إكبار الله وحده .. ومقاطعها ذلك التوحيد الأبى المترفع .. وتفاصيلها تلك الهتافات العزيزة الكريمة ، فوسعنى لكل أولئك أن أسميها ـ فى حق أنشودة العيد .. وأن أشعر أن ما ائتلف فيها من الأنغام القوية ، والمعانى الاجتماعية إنما هو ترديد قوى ، لأصداء هذا الهدى القرآنى ، راض دائما النفوس البارئة على عزة وإباء ، وطموح ، ورجاء .. وكذلك مضت على الأجيال أنشودة العيد فيهم أنغاما من موسيقى القرآن المتوثبة المتسامية .

يا شرق .. دانيا وقاصيا .. اذا ما كانت الأعياد مواقيت للذكرى ، فهل لقومك ، إذا ما رددوا أنشودة العيد السائرة ، أن يذكروا أن أسلافا لهم

كانوا يرتلون هذه الأنشودة من قلوب عامرة بمعانيها ، ترقص على توقيعها ألويةلهم ورايات، عقدت للمجدوالنصر، وأفاضت على الدنيا الخير والبر، وخلفت لأهلها أطيب الذكر .. هل يذكرون اليوم !! . . إن الذكرى تنفع المؤمنين

باشرق . . دانيا وقاصيا . . هل لك إذا ماردد اليوم بنوك أنشودة العيد ، بما فيها من نغمات هدى القرآن ، أن تذكرهم أنت بأن من هذا الهدى كراهة القول بغير فعل

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ . . . أئذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُون . . . وَإِذَا هُدُوا يَهْتَدُون ..

باشرق . دانيا وقاصيا .. عاد بنيك العيد فى يقظة ، وحياة ، يرتلون أنشودته الكريمة الظافرة ، بنفوس مشرقة ، وقلوب واثقة ، وهمم واثبة ، وعزمات غالبة ، فيكون حقا، العيد السعيد، يهنئون به ويهنأون .. يومئذ يحل لهم القول بعد العمل، وتطيب لهم حياة الكرام المكرمين ، وتعذب فى أفواههم أنشودة العيد للمؤمنين .

الله أكبر .. الله أكبر كبيرا . لا إلـه إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .. لا إلـه إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون

وسلام عليهم يومئذ فى الصادقين ؟ سنة ١٩٤٣ م

الله أكبر

الشعار الأكرم فى حياتنا

أيها المؤمنون . . .

سلام الله عليكم ورحمته . إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

آذنتكم، فيما سلف من حديث، بأن الحياة كرامة مناضلة : وهأنتم هؤلاء، تشهدون نضال الأمم عن كرامتها – فيما تؤمن به —

ونبأتكم أن الأمة إنما تقاوم الطغيان ، الواقع عليها من غيرها ، أو من مفسدى أبنائها ، بقدرما تشعر به ، من كرامتها ، حين يعمل الخاصة فيها ، لإذكاء هذا الشعور ، ويجاهدون فى سبيله . . .

ورأينا من تدبير القرآن لهذا كله طرفا صالحا ؛ كما عرفنا ، أن له وراء ذلك ، مرامى ومقاصد ، فى هذا الشأن ؛ نتابع القول الآن فى جانب منها ... لأن هذا الشرق ـ الذى يبغى عليه الغرب دائما ، احوج ما يكون إلى أن يعرف تلك المرامى ، من هدى القرآن ، ويتبين تلك المقاصد من تدبير الإسلام ، ليؤمن بنفسه إيمانا وثيقا ، ويحس بمواطن القوة فيه ومصادر العزة ، إحساسا ، صادقا فعالا .

أيها الشاعرون بوجودهم .. إن هذا الإنسان قد أمدته الفطرة بقوى أصيلة تدفعه إلى مايعمل، وتجنبه ما يترك .. ولأصحاب العلم بالنفس أن يختلفوا، حول ذلك ماشاء لهم البحث والدرس؛ فهم يلمحون، فى كل حال، قوى تتضافر وتتعاون . على توجيه عمل الإنسان إلى هدف له كرامته وفيه رفعته . . فالإنسان بفطرته، فخور، ميال للمباهاة، محب للمحمدة يجنح الى الظهور، ويغتبط بالثناء، على حين يكره الذم، وينفر من اللوم . . وذلك فيه مرتبط بميله إلى كل مافيه لذة ومسرة؛ وبجافيه عن كل مافيه ألم وضر ... ثم هذا منه يتصل برغبته فى السيطرة على غيره؛ وتصريف شأنه بنفسه، مع ما فيه من سعى إلى المشاركة الوجدانية، لمن يعيش معهم الإنسان ويشاطرهم شؤن الحياة . .

وهو كذلك المقاتل المناضل عن نفسه؛ ثم المندفع فى المنافسة؛ يعمل لمساواة من هو معهم، ثم يتفوق عليهم . . فتلك القوى وأشباه لها، فى بناء هذا الإنسان وكيانه، يدفعه كل منها إلى الاعتزاز بنفسه، كما تتصاور كلها، على دفعه إلى كرائم المطالب .. فحبه للظهور والمباهاة؛ وحرصه على أن يحمد ويثنى عليه؛ يغريه بالعظائم، ورغبته فى السيطرة، ونهوضه للنضال والمقاتلة وتوجهه للمكارم وتصديه للمنافسة والمسابقة يدفعه الى التفوق والتميز .. وهكذا ينطوى هذا الإنسان، على كثير من الدوافع الحافزة؛ والعوامل التى تثير ولوعه بالكرامة، وتهيئه للذود عن العزة .

أيها الشاعرون بوجودهم — ما أكثر ما ينتفع سواس الجموع ، بهذه الفطرة ، إذاما أحسنوا رياضتها ، وتلقوها بما يبعث حميتها. ولهم فى ذلك أساليب مختلفة ووسائل متنوعة. يقوم أكثرها على التنبيه المتصل، والإغراء الدائب؛ مستعينين فى ذلك بما يثير الوجدان البشرى ، من مختلف الفنون فللتصوير أثره فى توجيه المشاعر، وللموسيقى أثرها .. وللتمثيل أثره.. وهكذا ؛ ومن أقرب هذه الوسائل ، وأكثرها شيوعا ، فى سائر العصور ومختلف الأمم ؛ ومن أفعلها بالألباب ، فن القول ، وبليغ الكلام ؛ فإن الألفاظ والعبارات ، لتحل فى التأثير محل الصور اللافتة للنظر ، الموجهة للرغبة . وذلك إذا ما استخدمت تلك الألفاظ والعبارات استخداما لبقا خبيرا بما يلازم اللفظ من صورة تثار بسماعه ، وتتجه إليها النفس بلفته ، فما تقع الألفاظ المنتقاة ، بتلك الخبرة اليقظة ، على آذان السامعين ، حتى تبعث فيهم احساسا ، يمس مواضع التأثر الدفين . ويهيج أعنف الدوافع وأقواها ... ومن هنا يكون انتفاع القادة ، وأرباب الحكم بالعبارات ؛ وأفضل مايكون هذا الانتفاع بتخير ألفاظ ، مركزة ، موحية، مثيرة ، جامعة للمعانى، يرسلونها فى الناس فتسير فيهم مبدأ لهم ، تتركز فيه فكرة، وخطة، وشعارا متناقلا ، وقعه على النفس أقوى من النغمة المدوية ، وأوضح دلالة من الصورة الملونة البارزة ، يدفعهم إلى القتال لتحقيق معناه ، والجهاد لإدراك مغزاه يصيبهم ترديده ، ويسحرهم وقعه ، ثم ما يلبثون أن يتخذوه سمة وشارة ،

تخفق بها أعلامهم ، وترفع لإعلائها بنودهم، حتى لتكون موضع التقديس القوى ، ومحل التجلة الكبرى.. تنبعث من حروفها.. أشعةساحرةو يفيض نغم صوتها قوةو إهاجة، كما كانت كلمتا « الحرية والمساواة» شعار الناهضين المطالبة بحقوق الإنسان..وكما تكون فى أيام السلم والرخاء عبارات سائرة من المبادىء والشعارات،تهز الجماعة هزا شديدا ، وتدفعها دفعا عنيفا ، إذا ما رددت فى أناشيد منغمة ، وهتافات صارخة .. وفى تلك العبارات تسمع خلاصةصادقة ، لخلقية الأمة ، ومدى آمالها وآفاق ميولها ، وقوة شعورها بذاتها ، واعتدادها بنفسها . . . فإذا ما تأيدت تلك الشعارات والمبادىء بقوة الاعتقاد، ونفحت بحرارة الإيمان، وحاطتها حرمة الدين كان أثرها فى النفس أفعل ، وأقدس، وأنفذ ..

أيها المعتزون بعزة الإيمان · هذا المعنى الاجتماعى فى توجيه أفكار الأمة، وبعث مشاعر الشعب،هوالمعنى الذى نلتمسهمن هدى القرآن ، فنرى أول ذلك:أن هذاالقرآن يرى فى الإلهالمعبودوصورته فى نفس المؤمن،مصدرالعزة وأصل شعور بالكرامة، إذيملهاتصور الإلهوصفاته،والاستنصاربه،والالتجاء اليه ، ويثير التأليهالعابد،فى مختلف صورهلونا من الشعور الكريم المعتز . . فهؤلاءعابد وفرعون الوثنيون،يقسمون بعزته :قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ .. وهاهوذا القرآن يجهر بأن المشركين قد اتخذوا من اتخذوه ،

من شركاء الله ، التمسا العزة .. فيقول ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ .. وهو يقول إن العزة الكاملة إنما هى فى الإيمان بإلـه القرآن ، على ما صوره فى قوله ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ — ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ .

ومن لا يعرف هذا الإلـه ، فليس عزيزا .. وخطأ أن يرجو الاعتزاز ، كما يقول : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ، بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ !!

فإن العزة الكاملة لله ولرسوله ، ثم كانت بذلك للمؤمنين

أيها المعتزون بعزة الإيمان .. جعل القرآن لكم هذه العزة ، فساير بذلك فطرة الله ، التى فطر الناس عليها ، وأسعفكم على طلاب الكرامة ، بما فى تلك الفطرة ، من نوازع كريمة ، ودوافع موجهة ، على ما أسلفنا ، من بيان لذلك آنفا .. ثم راح القرآن يحيي تلك العزة فى نفوس المؤمنين ، وأحسب أنه من تدبير القرآن فى ذلك عمده إلى ما أشرنا إليه ، من الإثارة الوجدانية بالقول المبين ، يرسله شعارا ، مرفوعا ، ومبدأ ثابتا .. وذلك القول هو الهتاف الإسلامى المردد ، شعارا خالدا للجماعة الإسلامية الكريمة ألا وهو : الله أكبر . . .

أيها المعتزون بعزة الله .. يحكون من فترة الوحي ، عن الرسول عليه السلام ، بعد بدئه ، ماتعرفون خبره ؛ وقد كان أول شيء نزل بعد تلك الفترة ، قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .. فأمر الرسول -ص- بأن يقوم ، قيام عزم وتصميم ، وأن يختص ربه بوصف الكبرياء ، وأن يقول « الله أكبر » ؛ فكان في نزولها اليقين ، بأنه الوحي ، وقد حمى بعدها وتتابع ؛ وقال عليه السلام « الله أكبر » فكبرت خديجة ، مؤازرته الكريمة ، وفرحت .... وكانت جهرة بالتكبير تلاها الجد والنجح .. وصار هذا التكبير ، شعاراً إسلاميا معلنا يهتف به المؤذن ، في تنفس الصبح ، وبهرة النهار ، وفي وجه الشفق ، وغلس الظلام ، أو جلوة القمر ، فتردد صوته أجواز الفضاء ، وتتلقاه أبواب السماء ؛ حين يقول المرجعون في الأرض من سامعيه ! الله أكبر ، على كل من طغى وتجبر .. الله أعظم ، والعزة لله ، والدوام والبقاء لله ..

ويخف المصلون للصلاة خشعا ، فيرفع الملك المتوج يديه ، هاتفا في روعة : الله أكبر : ومايلبث أن يعيدها وهو يهوى إلى الأرض ، ليمرغ جبهته ، ويرغم أنفه ، خاشعا لكبرياء ربه ، رب العزة .. حين يجهر الضعيف ، الفقير ، الصائح ، من ورائه وحواليه ؛ مالئا أذنيه بصيحة : الله أكبر .. الله العظيم الجليل ، أكبر من كل شيء ، وبها يمتلىء قلب الفقير المؤمن كرامة ، بوقع هتافه المعتز ، حين يخشع قلب العزيز واجفا ، عانيا لسطوة الله العلي الكبير . . .

أفيخشى بعدها المؤمن طاغيا؟ وكيف! والله أكبر، على كل من طغى وتجبر.

أو ييتئس مؤمن بعدها بطغيان، فيرهب بقاءه، ولا ينتظر زواله؟ وكيف! والله أكبر، والعزة لله، والدوام والبقاء لله.

أيها المعتزون بكبرياء الله.. لقد مضى المؤمنون بعدها، يبنون دولتهم ويؤثلون مجدهم، فاتحين مناضلين، فكانت: الله أكبر؛ نداء يبدء الموقعة، يمس شغاف قلوب مؤمنة، ويفرغ فى نفوس جند الله ثقة بنصر القوى العزيز، إذ يريهم خصومهم قلة ضعيفة، فيجردون سيوفهم، وصلصلتها: الله أكبر.. وإذ ذاك ما القرن المدجج أمام قوة الله!! وما الفارس المنازل أمام قوة الله!! الله أكبر.

كذلك كان نشيد المسلمين فى أعيادهم: ترنيماته التكبير، ومقاطعه التهليل، وألحانه التأييد، وأنغامه الاعتزاز بوعد الله.. الله أكبر كبيرا. لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.. وهكذا فليتغن المؤمنون، بأنشودة العزة، ولحن النصر، وموسيقى الكبرياء.. وهل تخشى أمة هذا شعارها طغيانا عاديا، أو ترهب بغيا، مهما يكن عاتيا!! وكيف وربها الكبير المتكبر.. قد عرفت أنه المتكبر، الذى تكبر عن ظلم عباده، وتكبر على عتاة خلقه[1] وكان حقا عليه نصر المؤمنين.

(١) لسان العرب مادة، ك، ب، ر.

يامعتزين بكبرياء الله .. فطركم الله وفى أنفسكم مايغريكم بالتسامى، وأفاض عليكم إيمانا معتزا بعزته، متعاليا بكبريائه ؛ فما يعرف المؤمنون العزة إلا بالله ؛ وإن يحسبوها يوما ماتكون من غيره ، ولا بغيره .وكذلك كان من مأثورهم النبيل ، قولهم : من استعز بالعبد أذله الله . . ومن استعز بقوم أورثه الله ذلهم... فليفىء المزعزعون إلى نفوسهم ، ففيها فطرة الغلب والسبق ،وليثوبوا إلى إيمان ،يوحى بالعزة ،ويدين الكرامة،فيسمعوا واعين ، كل حين : الله أكبر . الله أكبر ..

ياشرق .. هذى مآذنك شاخصة، لم ينقص لها عديد، بل إنها لتزيد ؛ وهاهم أولاء مؤذنون يؤذنون ، أو صارخون يصرخون ؛ . . بل هاأنت ذا تسمع شعار العزة ، وشارة الكبرياء تصخب بها العامة ، فى الطرقات والأسواق ،مكبرين، فيما يقال لهم، فيقولون..وكل هذا حين تهتز كبرياؤك ويطغى أعداؤك ، ويخزى أولياؤك ؛ وتذل إرادتك ، وتهن قوتك؛ فليس لك من الأمر شىء، ولا فى دنيا الكرامة مكان .. وماهى إلا رسوم زائفة، وخدع كاذبة ، وأشباح مسيرة ، وشخوص مسخرة، يعبث بها هزؤ ساخر ، وكيد ماكر ... فهل ذل الإيمان ، وقد جعلت لأهله عزة الله ؟ ! .

هل هان الشعار وقوته من كبرياء الله ؟ ! ..

وهل أخلف الله الوعد بالنصر، وقد كان حقا على الله ؟! ..

حاشا الله ؛ فلا إيمان فى قلوبهم. ولـكن كلمات على ألسنتهم . . ولو آمنوا مااستنصروا أعداءك ، ولا استعزوا بالعبيد ، ونسوا الله ؛ ولا أنكروا كل محق ، وخافوا كل مادة ..

ماهتفوا بشعار هز شيئا من قلوبهم.. بل صاحوا بخداع يصل بهم إلى أطماعهم.. وما كان هؤلاء هم الموعودون بالنصر !! .. إنما وعد المؤمنون . . فا كشف ياشرق مكرهم ، واردد كيدهم .. وادع ربك لهم، ذرة من الأيمان العزيز ه يبدل ضعفهم قوة وقلتهم كثرة ، حين يهتفون معتصمين واثقين :

الله أكبر ؟

٢٧ / ٢ / ١٩٤٣

الفهرست

صفحة

للمؤلف

صـدر عن دار المعرفة

١ — من هدى القرآن ... القادة الرسـل

٢ — الجنـدية والسلم

٣ — مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٢٧٩٩

ISBN٩٧٧ - ٠١ - ١٣٠٠ - ×

الصوم لفتةٌ للبشرية إلى فطرتها لكيلا تطغى ، وهو تشبه ـ قدر الإمكان ـ بالملائكة المقربين بالكف عن الشهوات والخلو منها ، وأنه قهر للنفس ووسيلة للتقوى والعطف والرحمة وشكر النعمة .

والمتأمل لحِكَم الصوم يستشف فيها نغمات فلسفية ويستمع لنغمات زاهدة ثم هو بعد يشهد نزعة مادية استمتاعية .

١٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب